تأسست يونيو ٢٠٢٣

مجلة هلنا
Halna

إجتماعية - ثقافية - تراثية

العدد 27

سبتمبر ٢٠٢٥ - السنة الثالثة

إدارة وتحرير: م. عصمت ضيف الله الملهطاني

المستشار الإعلامي : شيخ الصحفيين عيد وحيده

مجلة شهرية - مصر وليبيا ودول المغرب العربي

المرأة البدوية





شاعر البادية النبيل



إقرأ في هذا العدد

مجلة هلنا

تهنىء

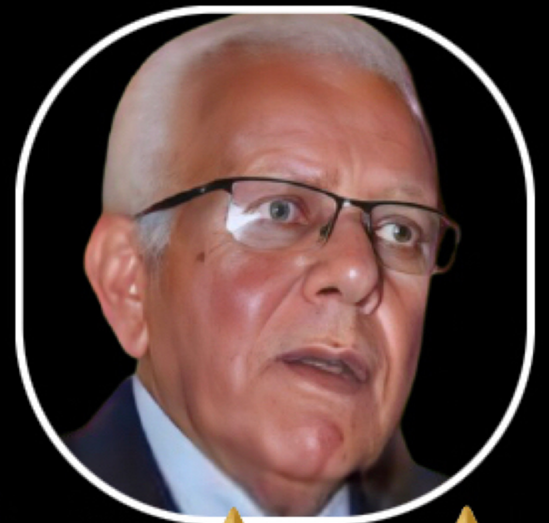
المهندس الشاعر محمود الفحام

عضو اتحاد الكتاب ومدير القسم الادبي بمجلة هلنا

لحصوله على النجمة الثالثة

متمنيين لسيادته

دوام التوفيق

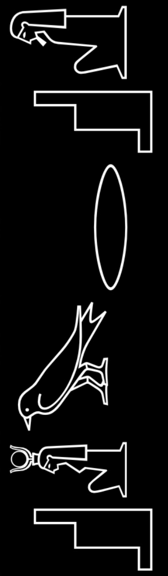








إيزيس و أوزوريس



شعر



م.محمود الفحام

عضو اتحاد الكتاب
رئيس القسم الأدبي مجلة هلنا

إيزيس و أوزيريس

أسطورة إيزيس وأوزوريس هي واحدة من أشهر الأساطير المصرية القديمة، وتدور حول الصراع بين الخير والشر، والحب والانتقام، والحياة والموت.

كان أوزوريس ملكًا عادلاً يحكم مصر، أحبه شعبه لأنه علمهم الزراعة ونشر العدل. لكن أخاه **ست**، إله الفوضى والشر، حقد عليه وخطط لقتله. صنع ست تابوتًا ذهبيًا على مقاس أوزوريس، ثم دعاه إلى وليمة وطلب من الحضور تجربة التابوت. عندما نام أوزوريس داخله، أغلقه ست وألقاه في نهر النيل، مما تسبب في موته غرقًا.

لم تستسلم **إيزيس**، زوجة أوزوريس وإلهة الحب والسحر، وبحثت عن جثته حتى وجدتها في مدينة جبيل (لبنان حاليًا). لكن ست سرق الجثة وقطعها إلى ١٤ قطعة (أو 42 قطعة حسب بعض الروايات) ووزعها على أقاليم مصر. بمساعدة الآلهة والسحر، جمعت إيزيس الأشلاء

وأعادت روح أوزوريس لفترة قصيرة، حملت خلالها بابنهما **حورس**.

اختبأت إيزيس في مستنقعات الدلتا لتربي حورس بعيدًا عن ست، الذي كان يهدد حياته. عندما كبر حورس، قرر الانتقام لأبيه والمطالبة بحقه في العرش.

دارت معارك شرسة بين حورس وست، حيث حاول ست قتل حورس عدة مرات، لكن حورس انتصر في النهاية بمساعدة الآلهة مثل **تحوت** و**رع**. حكمت الآلهة بأن يكون حورس ملكًا لمصر، بينما أصبح أوزوريس إلهًا لعالم الموتى، ونُفي ست إلى الصحراء كإله للشر.

إيزيس و أوزيريس

اوزوريس:

إيزيسُ حبكِ عاطرٌ الأنداءِ
بعثَ الحياةَ بجثّةٍ همداءِ
اهديتِ للجسد الممزق قٌبلةً
فسَرَي دبيب الروح في الأشلاءِ

إيزيس:

مهلاً حبيبَ العمر هذي قطرةٌ
بجوار بحرِكَ كم يهون عطائي
في الحالكات السودِ كانت صرختي
فرايتُ طيفَكَ في دجِيّ سمائي

اوزوريس :

جمّعتِ أشلائي بصبرٍ صامتٍ
من كل صوْبٍ في البُحَيرةِ نائي
انا لاأُصدقٌ انني بكِ التقي
بعد الذي قدكان من بلوائي

إيزيس و أوزيريس

إيزيس :

مُذْ غبتَ أوزوريس غابت بسمتي
وطفقتُ اسأل اين راح ضيائي ؟!
اين الرحيقُ العذبُ والحُلم الذي
جعل الحياةَ ندِيةَ الأرجاء؟!

اوزوريس :

إيزيس إني رغم ماقد حلّ بي
مااهتز صبري او فقدتُ إبائي
ياويلهُ غِرٌّ حقودٌ غادرٌ
من اجل وهمٍ يستحل دمائي

إيزيس :

" سِتْ " ياإلهَ الشر بل شيطانَه
يامن مزجتَ الحقدَبالبغضاء
هذا حبيبي ياشقيّ وموئلي
ولكم رجوتُكَ مارحمتَ رجائي

إيزيس و أوزيريس

اوزوريس :

الغَيْرةُ الحمقاءُ اعمت قلبَه
فانسَلّ يعوي كالذئاب ورائي
قد مزّق الجسدَ البرئ بنابهِ
ورماه بين هوائج الدأماء

إيزيس:

الخيرٌ اوزوريس امسي ضائعاً
كنِثار عطر في ذُري البيداء واليوم طابت
باللقاء مواجعي
وينير فجري بعد طول مسائي

اوزوريس:

الشر ياإيزيس بالحقد ارتوي
ست يفتديه بروحه الرعناء
حتي تسامق واستوي عودّلهٌ
فإذا قِطاف الشر محض هباء

إيزيس و أوزيريس

إيزيس:

يافرحة الولهان يَلقَي خِلَّه من بعد طول
تشوق وتنائي
كم طُفتُ هاتفةً نهاري والدُّجَي
اوزوريس هلا قد سمعتَ ندائي ؟!

أوزوريس :

إني قد سمعتُ وقد سما
صدق النداءِ علي أسي البُرَحاء
يامن ينير الكونَ سحرُ عيونها
صارت عيونك بسمتي
وشفائي

إيزيس:

في طيّ هُدْبي قد وضعتُكَ سيدي
وانا احس الآن بالخُيَلاء
هيا حبيبي كي
نحلق في السما
من غادر الأزمانِ انتَ وِجائي

إيزيس و أوزيريس

اوزوريس:

اواه ياإيزيس ماذا قدجري
ثملَ الفؤاد بدون ماصهباء
قدمتِ لي كأس الو فاء
سخيةً
فوجدتُ فيها راحتي وعزائي

سِتْ :

إيزيسُ اوزوريسُ إني جئتكم
ارجو السماحَ فقد طغت أخطائي
ونفثتُ سُمّ الحقدفي انسامكم
وتخِذتكَم ياإخوتي اعدائي

اوزوريس :

إيزيسُ ماذا قد سمعتُ ألا ارهفي سمعاً لما
يأتي من الأجواءِ
إني لأَخشي ان اصدق مسمعي
او ان أمني النفسَ بالنعماء

إيزيس و أوزيريس

ست :

احببتُها وضللتُ مسعايَ لها
فإذا نهاري حالك الظلماء
ماكنت ادري هل اروم فؤادَها
بالحب ام بعواصفٍ هوجاء

إيزيس :

والآن تأتي كي تُحيكَ مكائدا
ست ياعدو الخير جئتَ
تُرائي
ام جئتَ حقا نادما مستغفراً
إذهب ودعنا قد نسيتُ بكائي

ست :

الصفحُ ياإيزيس عن غِرّ عَمِي
انا في الحضيض وانتِ في العلياء
ان شئتما عدلَ القِصاص مُرا بِهِ
علّ القصاصَ يزيل مر شقائي

إيزيس و اوزوريس :

الامر صار إلي قضاء عادلٍ

فعدالة التاريخ

خير قضاء

والآن دعنا كي نعانق حلمنا

ولنسترح من بعد طول عناءِ





المرأة
البدوية











الأثري . عبد لله موسى لعشيبي

مدير الاثار بمطروح

المرأة البدوية

نساءُ الباديةِ لسنَ كسائرِ النساءِ مَلِكاتٍ في بيوتهنَّ، بل فرضتْ عليهنَّ ظروفُ الحياةِ في الباديةِ وعلى أطرافِ الصحاري وقلبِها، أعباءً كثيرةً وأعمالاً كبيرةً، فكنَّ يمارسنَ أعمالاً لا يستطيعُها الرجالُ، بينما كانَ رجالُهنَّ يسعَونَ إلى أرزاقِهِمْ. لقد أصبحتْ كلُّ تلكَ الأعمال ِمعَ التقدمِ التكنولوجيِّ ووصول ِالبنيةِ التحتيةِ إلى كثيرٍ منَ المناطقِ ِالصحراويةِ النائيةِ، ذكرياتٍ وفولكلورًا، ومنها:

- جلبُ المياهِ منَ الآبارِ وتوفيرُ الاحتياجاتِ اليوميةِ منها.
- جمعُ الحطبِ اللازمِ لإشعال ِالنارِ لإعدادِ الطعامِ والتدفئةِ.
- إعدادُ الطعامِ منْ طحن ِالحبوبِ بالرحى، وإعدادِ الخبزِ وتسويتِهِ، وتجهيزِ الولائمِ في المناسباتِ.
- صناعةُ المفروشاتِ والأغطيةِ بدءًا منْ صبغ ِالصوفِ وغزلِهِ ونسجِهِ.
- الاهتمامُ ببيوتهنَّ (خيامِ أهل ِالباديةِ) بدءًا منْ صناعتِها وإعدادِها وبنائِها وشدِّ رمِمِها وتعهدِها بالنظافةِ والصيانةِ.



- الاهتمامُ بالأغنامِ والماشيةِ وحلبِها ونظافةِ زرائبِها.
- الاهتمامُ بأطفالِهنَّ، فكنَّ يقمنَ بكلِّ تلكَ الأعمال ِوهنَّ يحملنَ الأطفالَ الصغارَ على ظهورِهنَّ.

كانتْ النساءُ البدوياتُ تصنعنَ الخيامَ (بيوتَ العربِ) منَ الأقمشةِ الباليةِ وتنصبنَها، وتجمعنَ الحطبَ وترعينَ الغنمَ وتحلبنَها وتصنعنَ اللبنَ الحامضَ والزبدَ عنْ طريق ِالخضِّ بالشكوةِ، وتصنعنَ الرُّبَّ وهوَ عسلُ البلح ِبطبخ ِالبلح ِحتى يعقدَ عسلًا، وتحصدنَ الشعيرَ معَ زوجِها وتطحنَهُ بالرحى وتملأنَ المياهَ منَ الآبارِ، وتغزلنَ الصوفَ وتصبغنَهُ وتغزلنَهُ سجادًا لا نظيرَ لهُ،

المرأة البدوية

وتصنعنَ الأحذيةَ الجميلةَ منْ جلودِ الغنمِ والماعزِ، وتصنعنَ الشكوى التي تخضنَ فيها اللبنَ منْ جلدِ الماعزِ الصغيرِ، وتصنعنَ الفراشَ منْ جلدِ الخرافِ بعدَ تجفيفِها وتمليحِها وغسلِها وتمشيطِها بالحلبةِ.

• شهاداتُ الرحالةِ الأجانبِ عنْ المرأةِ البدويةِ :

قالَ الحاكمُ الإداريُّ لواحةِ سيوةَ تشارلزُ بليجريفْ 1920م: "كانَ وضعُ النساءِ في الباديةِ أفضلَ منْ وضعِ نساءِ المدنِ وأفضلَ بشكلٍ لا نهائيٍّ منْ وضعِ نساءِ الواحةِ.. إلا أنَّ النساءَ في الباديةِ ينسجنَ الصوفَ، ويصنعنَ الخيامَ والسجادَ، ويحلبنَ الغنمَ، ويصنعنَ الزبدَ، ويطحنَ على الرحاةِ لصنعِ الخبزِ، ويجلبنَ الماءَ غالبًا منْ بئرٍ على بعدِ أميالٍ، ويجمعنَ الحطبَ لنيرانِ المخيمِ.. كلُّ هذا بالإضافةِ إلى رعايةِ الأطفالِ والطبخِ."

أما المستكشفةُ الإنجليزيةُ الليدي آنْ بلنتْ فقالتْ في مذكراتِها عامَ 1879م: "وضعُ المرأةِ البدويةِ أفضلُ كثيرًا منْ وضعِ المرأةِ الأوروبيةِ، وهيَ زوجةٌ عاقلةٌ مدبرةٌ، تتقنُ المهنَ والمهاراتِ الخاصةَ بالمنزلِ تمامًا، كما تفعلُ النساءُ في الريفِ الإنجليزيِّ."

وكتبتْ مسْ توللي في كتابِها الشهيرِ "10 سنواتٍ في بلاطِ طرابلسَ": «إنَّ هؤلاءِ البدوَ كالطيورِ الرحالةِ، فإذا أقحلَ الموسمُ ولمْ تعجبْهمْ الغلةُ منْ رقعةٍ ما هجروها إلى بقعةٍ أوفرَ خصبًا، والبدوُ يبذرونَ القمحَ والشعيرَ ويستقرونَ ريثما يحصدونَهُ وينزحونَ، الصبيانُ والبناتُ منهمكونَ في رعايةِ الأغنامِ، والزوجُ يحصدُ الزرعَ، والزوجةُ تطحنُ القمحَ على الرحى أو منهمكةٌ في الحياكةِ، وقدْ قدمتْ لنا بدويةٌ طبقًا منَ الكسكسي في سمةٍ منَ الإخلاصِ، وبدا عليها الشعورُ بالخيبةِ والإهانةِ حينَ رفضنا أنْ نتذوقَ طعامَها،



المرأة البدوية

والنساءُ لا يخلعنَ أساورَهنَّ وخلاخيلَهنَّ معَ أنها قدْ تعوقُهنَّ عنْ العملِ لثقلِها.»**

• قصة فاطمةُ العبارِ.. أشهرُ شاعراتِ الباديةِ في العصرِ الحديثِ

كانتْ الشاعرةُ البدويةُ فاطمةُ العبارِ، أولَ منْ قامتْ برثاءِ عمرِ المختارِ في ساحةِ الإعدامِ، ففي لحظةٍ عندَ إعدامِ المختارِ سكتَ جميعُ الرجالِ في الساحةِ، ونطقتْ هيَ بلْ صرختْ بأعلى صوتِها، قائلةً:

حي هاب وحي إمرار.. على الباشا ريس لادوار ..

كانتْ تنادي عمرَ المختارِ بالباشا وتقصدُ بالأدوارِ أيْ رئيسَ المدينةِ أو القريةِ. أُخذتْ هذهِ البدويةُ الشاعرةُ والشجاعةُ إلى معتقلِ سلوقَ، وقدْ حرصَ قائدُ الاحتلالِ الإيطاليُّ جراتسياني يومَ تنفيذِ حكمِ الإعدامِ في شيخِ المجاهدينَ عمرِ المختارِ على أنْ يشهدَ كلُّ سكانِ المعتقلِ تنفيذَ الحكمِ. فقالتْ الشاعرةُ فاطمةُ العبارِ أبياتًا تمجدُ فيها شجاعةَ المختارِ وبطولتَهُ في خوضِ المعاركِ المتواصلةِ، وتصفُ عزةَ نفسِهِ وثباتَهُ وقوةَ يقينِهِ، وعلمَ جراتسياني بذلكَ، فأحضرَها على الفورِ معَ المترجمِ وطلبَ منها أنْ تعيدَ عليهِ ما قالتْهُ، وكانَ منْ ضمنِ ما أعادَتْهُ عليهِ هذا المقطعُ:

انتي يا جارةُ جاكِ النومُ أنسيتي عدادينَ اللومِ؟ ••

هالشايبُ عايشٌ عصرانَ أيطرطشُ مابي لسلومِ ••

هالشايبُ مي يقولُ أبطلنا منْ عركةِ يومٍ على يومِ ••

فقالَ لها:





المرأة البدوية



سأشنقُكِ عقابًا لكِ على هذا القولِ فأخذتْ تظهرُ الفرحَ والبشرَ، وصاحتْ بإعلانِ سعادتِها بذلكَ، فقالَ لها جراتسياني متعجبًا: كيفَ تفرحينَ بهذا الشكلِ وأنتِ مقبلةٌ على الموتِ شنقًا؟، فقالتْ لهُ في ثباتٍ وفرحٍ: "وهلْ هناكَ أعظمُ منَ الاستشهادِ في نفسِ اليومِ الذي استشهدَ فيهِ عمرُ المختارِ؟!"، فيأسَ منها جراتسياني، فتركَها وانصرفَ.





• التعففُ في الحبِّ عندَ نساءِ الباديةِ

منْ أبدعِ ما وصفتْ بهِ المرأةُ البدويةُ المُحبةُ الودودةُ ما قالَهُ الأديبُ الكبيرُ مصطفى صادقُ الرافعيُّ، صاحبُ "وحيِ القلمِ": "وَمِنْ طَبعِ المَرأَةِ العربيةِ أنها إذَا أحبَّتْ امتَنَعَتْ أنْ تَكونَ البَادِئَةَ.. والمرأةُ في الإسلامِ مرغوبةٌ لا راغبةٌ.. ويُسعى إليها ولا تسعى هيَ البتةَ!.. يُخطَى لها ألفَ ميلٍ، ولا تتزحزحُ هيَ حتى تأتيَها طالبًا، فتقابلُكَ الخطوةَ بمثلِها، ولربما فاقتْكَ في الإحسانِ والعطفِ والرحمةِ، ولهنَّ في هذا على الرجالِ مِزيةٌ!

المرأة البدوية







لقدْ رحلَ هذا الرعيلُ الأولُ منْ نساءِ الباديةِ ولمْ يتركنَ لنا سوى بقايا ماضٍ، عطرٌ لا ينسى، صوتٌ نتمناهُ، حضنٌ نفتقدُهُ، حبٌّ يكبرُ، صورٌ صامتةٌ، شوقٌ لا يبردُ، دموعٌ لا تجفُّ، ألمٌ لا ينتهي، منزلٌ خالٍ مليءٌ بالذكرياتِ، وثيابٌ معلقةٌ نشتاقُ حينَ نراها إلى الماضي بينَ الحينِ والآخرِ.



تحيةٌ لأمهاتِنا منْ نساءِ الباديةِ اللواتي رغمَ قسوةِ المعيشةِ تخرجَ منْ تحتِ أيديهنَّ أطباءُ ومهندسونَ وضباطُ ومعلمونَ،



من أساطير البادية



النغاقـــة



المستشار ناجي بو المسمارية

عضو لجنة التراث بمطروح

النغاقـــة

كنا في أواخرِ الصيفِ وبدايةِ الخريفِ، ومع هبوبِ نسماتٍ بحريةٍ محمَّلةٍ بعبقِ اليودِ وطلاوةِ وطراوةِ الرياحِ الشماليةِ الغربيةِ، وكنا نستمعُ لصوتِ دويِّ البحرِ وهديرِ أمواجِهِ، ونلتفُّ حولَ حفرةٍ للنارِ بها جميراتٌ خَبَتْ أو تكادُ تَخْبُوَ، تختبئُ وتطلُّ علينا من خلفِ الرمادِ. وذلك أمامَ خيمةِ جيرانِنا، ومعنا جاراتُنا، وكانتْ كلُّ منهنَّ تحملُ طفلًا نائمًا بينَ يديْها أو على حجرِها، وكُنَّ يتسامرْنَ ويضحكْنَ ويقصصْنَ قصصًا جميلةً عن الحربِ العالميةِ، وكيفَ قامتِ الطائراتُ الجرمانيةُ بضربِ نجعٍ أحدِ القبائلِ لظنِّهنَّ أنه كامبٌ إنجليزيٌّ، والهجةِ الأولى والهجةِ الثانيةِ، وقصصِ زواجهنَّ، وكيفَ زُفَّتْ فلانةٌ، وكيفَ وقعَ هودجُها، وكيفَ زارتْ فلانةٌ، وبكمْ شاهٍ أطلقتْ عقالَها، قصصٌ ونوادرُ وضحكٌ من الأعماقِ، رغمَ أنَّ حياةَ الباديةِ خشنةٌ جافةٌ، ضحكُها قليلٌ وهمُّها دائمٌ وثقيلٌ، فحياتُهم كلُّها عملٌ من الرعيِ إلى الحصادِ والحرثِ، ليسَ هناكَ وقتٌ للطفولةِ ولعبِها، فأطفالُ الباديةِ يولدونَ رجالًا يتحملونَ المسؤوليةَ منذُ نعومةِ أظفارِهم، فتجدُهم رعاةً وفي الحصادِ وجمعِ الزيتونِ

والتينِ والبطيخِ والعنبِ. ونعودُ إلى سهرتِنا، فقد كنا نحنُ الأطفالَ على جانبِ الرواقِ نفترشُهُ ونستمعُ لقصصٍ من إحدى العجائزِ، وكنا نكادُ نطيرُ فوقَ السحابِ مع قصصِ أبي زيدٍ الهلاليِّ ونقارشَ وسليسلةَ وحنيِّ الغولةِ والكلبِ الأسودِ والشويبِ العجوزِ، نفرحُ تارةً ونحزنُ تارةً ونلتصقُ بأمهاتِنا رعبًا تارةً أخرى، وكانَ في الحفرةِ برادُ شايٍ بلا مقبضٍ، وقد استُبدلَ مقبضُهُ بسلكٍ لفُّوهُ حولَ فمِ البرادِ، والذي لا يُعرفُ له لونٌ من كثرةِ ما رأى من هولٍ وصهدِ نيرانٍ، وكنا نشربُ من الدورِ الثالثِ للشايِ، والذي كانَ مخصصًا للأطفالِ، وذلك بعدَ عشاءٍ دسمٍ في طلقِ عقالِ جارتِنا، وطلقُ العقالِ كانَ دائمًا ما يأتي بعدَ شهرٍ من الفرحِ، أما الزورةُ فكانتْ بعدَ أسبوعٍ، وكانتِ العروسُ تطلقُ عقالَها بإحضارِ ذبيحةٍ أو اثنتينِ لمنزلِ أبيها، وبالنسبةِ لزورةِ المطلقةِ الثيبِ التي تزوجتْ قبلَ ذلكَ، تأتي بعدَ ثلاثةِ أيامٍ، وكانَ عشاؤُنا لحمًا ومرقًا وأرزًا، وكانتْ أمسيةً جميلةً وليلةً قصيرةً كما قالتْ إحدى العجائزِ، وكانتِ العروسُ ومعها بعضُ البناتِ في الرفةِ المقابلةِ أو

النغاقـــة

(الجانبِ) الآخرِ، ونحنُ والعجائزُ في رفقةٍ عندَ المقدمِ، أي في الخيمةِ من الأمامِ بجوارِ حفرةِ النارِ، وكانتِ البناتُ يستمعنَ للعروسِ وهنَّ مشدوهاتٌ، تارةً يضحكنَ وتارةً يصمتنَ ويسألنَها عن منزلِها ومكانِها وتمتِها الجديدةِ، وضحكاتٍ لم نعرفْ معناها حتى صرتُ شابًّا، وفجأةً سمعنا صوتًا في السماءِ، صوتَ طائرِ النغاقِ: غاقْ غاقْ، وهنا تلبدتِ الأجواءُ بالغيومِ واكفهرتْ وسادَ الهرجُ والمرجُ، وقفزتِ النساءُ وصرَخْنَ وذهبنَ بنا بسرعةٍ إلى الخوالفِ، آخرِ البيتِ، وغطَّيْنَنا بالشلفانِ والأكليماتِ والبطاطينِ وحتى بالحصيرِ، وهنَّ يرتعشنَ وفي حالةِ خوفٍ، ويقُلْنَ: اسمَ اللهِ، اسمَ اللهِ، وخفنا نحنُ رغمَ أنَّا لم نكنْ نعرفُ ما يدورُ حولَنا، وأخذتْ إحداهنَّ صفيحةً فارغةً وعصًا وأخذتْ تطرقُ على الصفيحةِ بالعصا بقوةٍ وبسرعةٍ، ومعها بعضُ النسوةِ يصفقنَ بأيديهنَّ ويقُلْنَ: لا نحنُ من نساكِنْ ولا حضرنا مدعاكِنْ، لا نحنُ من نساكِنْ ولا حضرنا مدعاكِنْ، وينظرنَ إلى السماءِ، ونحنُ نرددُ في رعبٍ: لا نحنُ من نساكُمْ ولا حضرنا مدعاكُمْ، من تحتِ الأغطيةِ، وكأنَّ عينًا قد

النغاقـــة

أصابتْ سهرتَنا الجميلةَ والعشاءَ الدسمَ، وقد نسبنَ النساءُ العينَ بالفعلِ لإحداهنَّ بعدَ أن ذهبتْ، وبعدَ خفوتِ صوتِ النغاقةِ وابتعادِها رويدًا رويدًا، خرجنا من تحتِ الشلفانِ وعدنا إلى الحفرةِ وتحلقنا حولَها من جديدٍ مع بعضِ الحذرِ وعدمِ الخروجِ من الخيمةِ، فالخروجُ فيه خطرٌ علينا، فالطيرةُ لازالتْ في الأجواءِ، وقصتْ إحدى العجائزِ قصةَ الطيرةِ ولماذا تصيبُ أطفالَنا بمرضِ الطيرةِ القاتلِ، فالنغاقةُ المسكينةُ كانتْ في سالفِ الزمانِ امرأةً جميلةً، وكانَ عندَها ابنٌ جميلٌ لم تنجبْ غيرَهُ، وتوفي زوجُها دونَ أن يرى ابنَهُ، وكانتْ جاراتُها يحسدنَها جمالَها وجمالَ طفلِها، ويخشينَ على رجالِهنَّ أن تزيغَ أعينُهم على الأرملةِ الجميلةِ الحزينةِ، رغمَ رفضِها الزواجَ من كثيرينَ طلبوا يدَها واكتفتْ بتربيةِ ابنِها، وكانتْ تعشقُ ابنَها بجنونٍ، وكُنَّ جاراتُها يتهمنَ ابنَها بالشقاوةِ وضربِهِ وشجارِهِ الدائمِ مع أولادِهنَّ، ويشتكينَهُ إليها دائمًا، وهي تضربُهُ وتوبخُهُ، إلى أن خرجتْ عن شعورِها في إحدى المراتِ، فحياةُ الأرملةِ الصغيرةِ الجميلةِ بالتأكيدِ مليئةٌ بالمنغصاتِ

النغاقـــة

والهمومِ والنظراتِ المريبةِ إلى الأراملِ والمطلقاتِ في مجتمعاتِنا العربيةِ عمومًا، وفي يومٍ شكَتْهُ إليها إحدى جاراتِها، وكانَ بيدها عصًا غليظةٌ لخبطِ الصوفِ وطرقِهِ، فضربتْ ابنَها بها بشدةٍ، وأخذتْ تضربُهُ، وجاراتُها لم يمنعنَها من ضربِ ابنِها ولم يأخذنَ العصا من يدِها، والطفلُ يصرخُ ويستغيثُ ويقسمُ لها أنه لم يفعلْ شيئًا، ولكنْ لا حياةَ لمن تنادي، لقد تملكَ الغضبُ أمَّهُ، فوقعَ الطفلُ على الأرضِ مغشيًّا عليه وفي غيبوبةٍ، وهنا جاءتِ الجاراتُ ولكنْ بعدَ فواتِ الآوانِ، لقد سبقَ السيفُ العذلَ، حاولتْ إفاقتَهُ برشِّ الماءِ وهزِّهِ بقوةٍ، وسالتْ دماءُ المسكينِ الذكيِّ من أنفِهِ، ولفظَ أنفاسَهُ، وصرختِ الأمُّ صرخةً سمعَها من في الأرضِ والسماءِ، فقد أخذَ صاحبُ الوديعةِ وديعتَهُ، فضربةٌ من ضرباتِ الأمِّ جاءتْ على مقتلٍ فقتلتْهُ، وصرختْ، ومن قوةِ الغضبِ والزعلِ طارتْ في السماءِ وأصبحتْ طيرةً، وأقسمتْ أن تنتقمَ من كلِّ النساءِ وأن تُمرضَ أطفالَهنَّ وتقتلَهم بمرضِ الطيرةِ القاتلِ، ومن هنا جاءتِ الأسطورةُ المشهورةُ، وبالفعلِ حصدتِ الطيرةُ ملايينَ الأطفالِ،

النغاقـــة

وحتى عهدٍ قريبٍ قبلَ تقدمِ الطبِّ، كانتْ هي أكبرَ قاتلٍ للأطفالِ، وأصبحَ كذلكَ دواءُ مرضِ الطيرةِ هو شحمُ النغاقِ، ولذلكَ كانتْ نساءُ الباديةِ دائمًا يقسمنَ للنغاقةِ وهي في السماءِ أنهنَّ لو حضرنَ ضربَها لابنِها لمنعنَها من ضربِهِ، وأنهنَّ حزيناتٌ لحزنِها، ومعَ ذلكَ أخذتِ الكثيرَ من أطفالِهنَّ رغمَ أنهنَّ لم يكنَّ من نساها ولم يحضرنَ مدعاها.







في الصميم



أ. حسني جرامون

رئيس مجلس ادارة وتحرير
موقع الرأي الاخر - صحفي بالنبأ
- مدير القسم الإجتماعي بمجلة هلنا



الصبر

قصة و عبرة

الصبــر

فعلاً، الرجولة في الصبر حتى تحقق مرادك: الصبر عن الخيانة، الصبر عن صديق أو صديقة سوء، الصبر عن قلة المال، عن فقد عزيز بوفاته، الصبر على المرض، الصبر عن الصدمات. وإليكم قصة عن الصبر، أرجو قراء تها للآخر. حقاً، المال لا يخلق رجالاً، بل الصبر هو من يخلق الرجال.



عاش طفل يتيم برفقة عمه حتى بلغ من العمر ستة عشر (16) عاماً، طلب من عمه الزواج من ابنته التي كان يحبها، فقال له عمه: "عندما تكبر وتصير رجلاً، والرجولة في الصبر". وعندما أصبح عمره عشرين عاماً، طلب من عمه الزواج مرة ثانية، فقال له عمه أيضاً: "عندما تكبر وتصير رجلاً، والرجولة في الصبر". ثم عندما بلغ الثالثة والعشرين عاماً، طلب منه للمرة الثالثة، وكان رد عمه: "عندما تكبر وتصير رجلاً، والرجولة في الصبر".

ترك اليتيم بيت عمه، وخرج يائساً، هائماً على وجهه في الصحراء. ورزقه الله بعمل، فجمع في فترة سنتين أكثر مما جمع في بيت عمه بأضعاف مضاعفة. فرجع اليتيم إلى عمه فرحاً، معتقداً أن عمه سيزوجه وأنه صار رجلاً. فأعطى كل ما جمع من مال إلى عمه، وطلب منه ابنته مرة أخرى، فقال له: "عندما تكبر وتصير رجلاً، والرجولة في الصبر".

الصبــر

خرج اليتيم من بيت عمه مرة ثانية، حزيناً، حائراً، هائماً على وجهه، يكابد حرارة الصحراء وآلام الجوع والعطش، فعثر في طريقه على بئر ماء لبيت أعرابي في الصحراء، وقد بلغ منه العطش مبلغه، فاقترب من البئر، فإذا بقربة ماء معلقة في الظل، يداعبها الهواء، فنادى على صاحب البئر لعله يُبل عروقه ولو بقليل من الماء.

فخرجت إليه بنت صاحب البئر، فاستأذن من البنت أن يشرب من الماء، فأذنت له، وعندما أمسك بقربة الماء ووضعها بين شفتيه، وقد شرب قدر فنجان من الماء البارد، وفجأة جاءت البنت واختطفت القربة من بين شفتيه.

عجب اليتيم واستغرب في أمرها أشد العجب والحيرة: كيف تخطف من فمه قربة الماء وهو يعاني من عطش الصحراء معاناة شديدة؟ طلبت البنت من اليتيم أن يدخل ديوان والدها الغائب عن البيت، وذبحت له شاة، وأحسنت ضيافته، وأكرمت نزله كأفضل ما يكرم العربي ضيفه، ثم جاءت له بعد ذلك بقربة الماء، وطلبت منه أن يشرب الآن كما يريد.

سأل اليتيم البنت: "لماذا رفعتِ القربة عن فمي وأنا شديد العطش؟"

أجابت البنت: "الرجولة في الصبر".

قال اليتيم: "إنني أبحث عن هذه الكلمة منذ عشر سنين ولم أيأس، لقد بعثتِ الحياة بداخلي من جديد، فما تفسيرها؟"

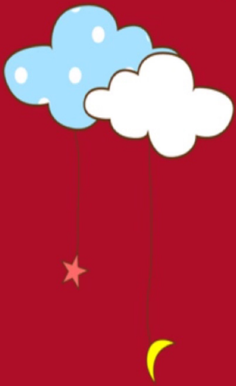
الصبر

قالت له: "لو شربت من ماء القربة حتى ارتويت، لما أكلت من الطعام الذي أعددته لك كما أكلت الآن، فالرجولة في الصبر".

سألها اليتيم: "أين أهلك؟"
قالت: "خرجوا لأعمالهم، وإنني هنا كما تراني، وحيدة، صابرة في البيت، وعلى الرغم من أنني أنثى، فإنني أصبر صبر الرجال، فالرجولة في الصبر".

استأذنها اليتيم بالانصراف، ثم انصرف، وعاد إلى عمه يطلب ابنته من جديد، وعندما قابل العم ابن أخيه اليتيم، قال له: "أين المال؟"
قال اليتيم: "لا يوجد معي مالاً".
قال العم: "فأين الرجولة إذن؟"
قال اليتيم: "الرجولة في الصبر".
قال العم: "الآن أزوجك ابنتي، فالمال لا يخلق رجالاً، بل إن الصبر هو الذي يخلق الرجال، ولك مني فوق ابنتي مزرعة كبيرة وبيتاً وقطيعاً من الحلال".

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب (الصبر)".
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.





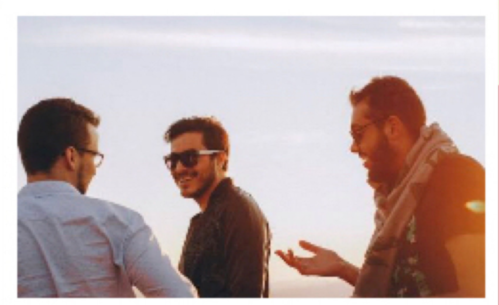




شقة
و ٣٠ مفتاح

قصة من دفتر حياتي







دكتور مهندس

إبراهيم شعبان

شقة و 30 مفتاح

الموقع: عابدين، شارع الشيخ ريحان، الدور السادس.

تاريخ البناء: 1972-1974.

الساكن الأصلي كان شقيق العبد لله، سافر إلى أمريكا لدراسة الدكتوراه، فتسلم الشقة زميله. تزوج فيها شقيق العبد لله، ثم انتقلوا إلى شقة أخرى في شارع مصر والسودان. بعد سنوات، عاد العبد لله لتسلمها.

طوال ثلاثة عشر عامًا، لم يُغيَّر قفل الباب "الطبلة". كل ضيف أو زميل أو مارٍ بالقاهرة بالصدفة كان يصنع مفتاحًا للشقة. كنت مجندًا آنذاك، وكانت الشقة ملتقى ستة زملاء عزاب، تتجمع فيها ثم نذهب إلى نادي الضباط لتناول العشاء. الباب قد يُفتح في أي لحظة، وإذا كنت مستيقظًا، يلقي الوافد السلام، وتسأله: "أنت مين؟" من باب التعارف فقط. أحيانًا يكون الضيف متعبًا، فلا يرد، يفتح أي غرفة ويرمي نفسه فيها لينام، ويؤجل التعارف للصباح... والصباح رباح، لو أمكن!

هكذا استمرت الشقة: واحد داخل، وواحد نايم، وواحد خارج. مع الوقت، صار وجودي في أيام غير الطوارئ أو النوبات غير مرغوب فيه تقريبًا. بدأت أغلق إحدى الغرف بمفتاح حتى لا أضطر للنوم في الصالة.

شقة و 30 مفتاح

في أحد الأيام، تجمعنا وهممنا بالخروج، فإذا بجرس الباب يرن. كنا غير معتادين على الجرس أصلًا، لأن كل ضيف معه مفتاح من أخوه، عمه، خاله، أو حتى خالته، مش مشكلة! لكن الجرس؟ أول مرة أسمعه من سنتين! فتحت الباب، فإذا بآنسة جميلة تقف أمامي وتسأل عن فلان، صديق لي وللعائلة. تذكرت فورًا أنه تحدث عنها من قبل، كانت زميلته في معهد اللغات الأجنبية. طبعًا، ما ينفعش أكرشها، والسادة اللي جوه ما اقدرش أخبيها عنهم. والأستاذ اللي بتسأل عنه؟ هو في البحرية، قضى أسبوعًا في الشقة ولم أقابله إلا مرة أو مرتين!

دخلتها عليهم لإثبات حسن النوايا، خصوصًا إننا كلنا عزاب وشبه متدينين. أولًا، لأنها مش تبعي. ثانيًا، لتعرف إنه مش مستخبي منها (وكيف يستخبى من هذا الجمال والشباب؟). بعد ثوانٍ، تذكرت إنه قال إنها بتقرأ الفنجان. قلت: فرصة نعمل حفلة قراءة بخت! قلت لها: "بتقري الفنجان يا منى؟"

قالت: "أيوه"

قلت: "بصي، معنديش بن كفاية، ممكن نحط في كل فنجان شفطة وتقريه؟" (قلت أخلّص منها).

قالت: "آه، ممكن"

قلت في سري: "يا بنت الإيه، لزقت لنا!"

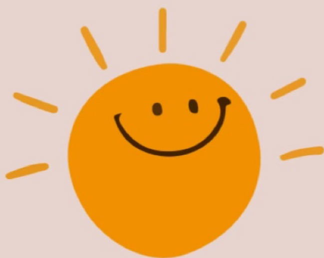
شقة و 30 مفتاح

بدأت تقرأ الفنجان كأنها تقرأ من كتاب مفتوح بالبنط العريض: "فلان، هيحصل كذا وكذا وكذا.." بدأت أقلق، وأخذت أكتب على ورق بلوك شركات الأدوية. جعلت فنجاني الأخير، وتعمقت أكثر، وخفت من الفضايح، فكتبت اللي لحقت أكتبه. آخر خبر قالته كان تجميع من فنجاني، كأني زعيم عصابة: "كلكم مفيش حد هيموت قريب، بس دي آخر مرة تتقابلوا، لا هنا ولا في أي حتة"

قلتلها بصراحة: "لو هتكملي كده، كلنا عزاب، يعني مش هنتعشى! تعالي نتعشى سوا" وخرجنا.

مرت الأيام، والحرب، والأسر، وفتح السويس، إلى أن جاء يوم فتحت فيه الغرفة اللي كانت مكتبًا، محدش من زوار المفتاح دخلها. لقيت الورق اللي كتبته، قرأت منه كثيرًا وتأملت. بنت الإيه مكشوف عنها الحجاب! نبوءاتها لسه بتتحقق حتى اليوم، ولم نستطع أن نتقابل أبدًا حتى اليوم.

وأنا خارج، لقيت ورقة كبيرة على الحيطة مكتوب عليها: "ذهب ولم يعد... من يجد إبراهيم، له تلات مفاتيح ببلاش!"





سكندريات

بين تدبير البشر وترتيب الإله

د. عيد وحيده

شيخ الصحفيين وعضو نقابة الصحفيين والمستشار الإعلامي لمجلة هلنا





بين تدبير البشر وترتيب الإله

البعضُ يخططُ، ويدبرُ، ويرسمُ، ويحيكُ المؤامراتِ.. ويستخدمُ كلَّ الأساليبِ المشروعةِ، ويوزعُ الأدوارَ والمواقعَ والمناصبَ، ويحكي عن المستقبلِ وكأنه حدثٌ بالفعلِ. يحدثُ هذا في العملِ السياسيِّ والاجتماعيِّ والرياضيِّ، وأيِّ موقعٍ تجري فيه انتخاباتٌ وتغييراتٌ، ويتناسى هؤلاءِ مقولةَ: "أنتَ تريدُ، وأنا أريدُ، واللهُ يفعلُ ما يريدُ"، ويتناسونَ أيضًا أنَّ المكرَ السيِّءَ لا يحيقُ إلا بأهلهِ، وأنَّ نظريةَ المؤامرةِ تردُّ على من يدبرها، وأنَّ المستقبلَ بيدِ اللهِ. للأسفِ الشديدِ، هناكَ تغييرٌ في الشخصيةِ المصريةِ بشكلٍ بشعٍ، قد يكونُ مرجعُ ذلكَ لزيادةِ الفجوةِ بينَ الأغنياءِ والفقراءِ، وظهورِ طبقةٍ تريدُ المالَ والجاهَ والسلطةَ والنفوذَ، وهذه الطبقةُ تناستْ اللهَ.. وهي التي دعمتْ ثقافةَ العنفِ عندَ الطبقاتِ البسيطةِ، واستخدمتْ هذه الطبقةُ المتوحشةُ العنفَ في تعاملها من خلالِ بلطجيةٍ وقتلةٍ محترفينَ وبودي جارداتٍ.. تحرسهمْ لتعوضَ النقصَ عندهمْ من أنهمْ شخصياتٌ مهمةٌ في المجتمعِ، وهي ليستْ مهمةً، ولكنْ تشتري احترامَ المجتمعِ من خلالِ الهالةِ التي توجدُ حولها. ولأنَّ هذه الطبقةَ، رغمَ نفوذها وفلوسها، تتمتعُ بغباءٍ، فيسقطُ أعضاؤها على أهونِ الأسبابِ،

وقد يكونُ ذلكَ لأنَّ اللّهَ تدخلَ لوقفِ جبروتهمْ وطغيانهمْ وافترائهمْ. الطريفُ أنَّ هؤلاءِ يخططونَ ليملكوا ويحكموا كلَّ شيءٍ في مصرَ، يتناسونَ أنَّ هناكَ شرفاءَ وبسطاءَ وطبقةً وسطى انهارتْ بأيديهمْ، ولكنها عقلٌ وفكرٌ وترمومترُ هذه الأمةِ، وأصحابُ مصلحةٍ حقيقيةٍ في هذا الوطنِ. وقد تكونُ الطبقةُ الوسطى وصلتْ لمرحلةِ الضعفِ والهوانِ، ولكنْ قوامها موجودٌ، وقبلَ ذلكَ "ربنا موجودٌ". نعودُ لمن يخططُ ويدبرُ، ونقولُ لهُ: إنَّ الترتيبَ الإلهيَّ والعنايةَ الإلهيةَ وعدالةَ السماءِ أهمُّ من تدبيرِ البشرِ، فمن يريدُ أن يحكمَ أو يسيطرَ أو يرأسَ لن يتحققَ لهُ ذلكَ إلا بإذنِ اللّهِ، والسببُ قد نعلمهُ وقد لا نعلمهُ. وهذا يجرُّنا إلى الحديثِ عن هؤلاءِ الذينَ يملكونَ ويسيطرونَ ويريدونَ الدنيا والآخرةَ، هل نسوا الاعتمادَ على اللّهِ، وأنهُ مسببُ الأسبابِ؟ أعتقدُ أنَّ هناكَ من نسوا اللّهَ، فأنساهمْ أنفسهمْ، وهي ظاهرةٌ جديدةٌ على مصرَ المتدينةِ الأمنةِ عبرَ مئاتِ السنينَ. ونقولُ لهؤلاءِ من الذينَ أخذتهمْ العزةُ بالإثمِ: لا تفرحوا، فهناكَ ترتيبٌ إلهيٌّ للأشياءِ بعيدًا عن ترتيبِ البشرِ، لعلَّ وعسى أن يفهمَ الجميعُ.





فتوة السيدة

د.
سيد شعبان



فتوة السيدة

السُّكونُ يَسيطِرُ على الدُّنيا مِن حَولي، أَشعُرُ بِأَنَّ العالَمَ يَنتَظِرُ عاشورَ النَّاجي؛ روى عازِفُ الرَّبابةِ حِكايَتَهُ في مولِدِ سيدي إبراهيمَ الدَّسوقِيِّ؛ تَرتَجُّ السَّاحةُ بِأَصواتِ المُبتهِلينَ: مَدَدٌ يا أَولياءَ اللهِ الصَّالِحينَ، في اللَّيلةِ الكَبيرةِ حَضرةٌ وشُهودٌ، ذِكرٌ ودَراويشُ؛ أَنتَظِرُ بَركةَ سَيِّدِنا تَفيضُ عَلَينا، والمَدَدُ شَربةُ ماءٍ مِن حَوضِ زَمزَمَ. آهْ! عِندَ المَقامِ عَجَزةٌ ومَساكينُ، أَرواحٌ سَكَنَها المَرَضُ، وإِتاوةٌ على أَهلِ الطَّريقِ، حبُّ العَزيزِ اختَفى في زَحمةِ المَولِدِ، يَجري غَجَرُ المَدينةِ وراءَ الغَريبِ؛ لا يَفلَحونَ إِلَّا في السَّلْبِ والنَّهْبِ، يُراقِصونَ الأَفاعيَ، يَصبُغونَ الحَميرَ، يَسرَحونَ بِالقُرودِ، بِنتٌ تاهَتْ يا ولَادَ الحَلالِ، لا يَسمَعُ أَحَدٌ، التِّمساحُ ابتلَعَها، مَدَّ سَيِّدُنا يَدَهُ وأَخرَجَها مِن بَينِ أَسنانِهِ! مَدَدٌ مَدَدٌ، مولِدٌ وحِكاياتٌ، حينَ تَكونُ هُناكَ عَلَيكَ التَّصديقُ وإِلَّا! فَينَكَ يا سَيِّدي إبراهيمُ؟ أَلَفُ صَنَمٍ حَولَ المَقامِ، نَذَرتُ لِلهِ أَن أَصنَعَ سَبعةَ سُيوفٍ؛ لِتَكونَ في يَدِ

فتوة السيدة

الظَّاهِرِ بَيبَرسَ، خُذني مَعَكَ، يَأتيني الصَّدى مُجيبًا: سَيِّدُنا في بَرزَخِهِ لَن يَسمَعَكَ.

قالَ خَليفةُ مولانا المُقَدَّمِ: "يا بُنَيَّ، كُلُّنا بَهاليلُ لا حَولَ لَنا ولا قُوَّةَ". سِتُّنا زَينَبُ تُحِبُّ المَساكينَ، نَظْرةً يا أُمَّ العَواجيزِ! يَحطِمُنا الخَوفُ الرَّابِضُ دَاخِلَنا يَجعَلُ مِنَّا قِرْدةً تَقفِزُ على الحِبالِ، فَالحارةُ تَنامُ على تَرَقُّبٍ، يَدفَعُ كُلُّ واحِدٍ مِنَّا ما يَملِكُ لِيَعيشَ ساعةً أُخرى، تُراقِصُ الذُّبابُ الأَزرَقُ في الزَّوايا، لا يَدَ لَنا في مُقاوَمَتِهِ؛ العَجْزُ يَتَنامى دَاخِلي، أَنا لا أَهْلَ لي هُنا، حَتَّى عَصايَ صَغيرةٌ لا تُساعِدُني في عِراكٍ ولا تَشُدُّ ظَهري في رَقصٍ. تَخَيَّلتُ نَفسي أَبو زَيدٍ الهِلاليَّ؛ دائمًا كُنتُ أَسمَعُهُم يَقولونَ: الخَلاءُ واسِعٌ، هَل يَكونُ فَقرٌ وذُلٌّ ولا حُلمٌ؟ جِلبابي يُظهِرُ فَقري، تَقتُلُني الحاجةُ إِلى سَنَدٍ، حارةُ المُقَدَّمِ تَأكُلُ نَفسَها؛ تَطحَنُ الغُرَباءَ بِلا رَحمةٍ؛ وأَقسى حَياةٍ فيها أَن نَعيشَ مُهمَّشينَ، عالةً وإِن كُنَّا نَحمِلُ الطِّينَ على رُؤوسِنا، ما بِاليَدِ حيلةٌ، لو أَنَّ لي مالًا! أَشتَري

فتوة السيدة

حِصانًا وأَتبَختَرُ بِهِ، أَلبَسُ جِلبابًا مِن صوفٍ "كَشميرِ أَبو عَكّازَتَينِ" أَتنَعَّلُ بِحِذاءٍ جَديدٍ، أَستَنِدُ على عَصًا قَوِيَّةٍ، أَخطُبُ بِنتَ الحَلوانيِّ؛ بَهيَّةٍ! تَسيلُ مِن فَمي الرِّيالةُ؛ مُبارَكٌ ما أَصنَعُ، أَيّامُ اللهِ مَعدوداتٌ تَنقَضي والوَاعي مَن مَلَأَ جِلبابَهُ مِن بَركةِ مَقامِ سِتِّنا أُمِّ هاشِمٍ. حُلمٌ يَسيطِرُ عَلَيَّ، المالُ عائِلةٌ لِمَن حُرِمَ مِنَ الظَّهرِ، خَيَّبَ اللهُ الوَهمَ، قَدَري أَن أَكونَ عَتّالًا في شارِعِ الحَدّادينَ، صَباحَ كُلِّ يَومٍ أَدُقُّ بِمِطرَقةٍ لا تَعرِفُ الصَّمتَ، أَدورُ في ساقيةٍ وأَنا حِمارُها الأَعمى، لا يَسمَعُ بي أَحَدٌ، لو مُتُّ الآنَ؛ لَن يَحسُّوا بِرَحيلي، لا أُمَّ لي تَندُبُني، لا صَغيرةً ورائي تَلطِمُ خَدَّيها، وَحدَهُ الذُّبابُ يَطِنُّ في عَزفٍ لا يَنتَهي. تَبحَثُ حارةُ المُقَدَّمينَ عَن آخَرَ تُكمِلُ بِهِ مَسيرَتَها البائِسةَ، تَسخَرُ مِنّا أَقدارُنا في ساعةٍ لا انتِظارَ لَها. يَدوي الكَرباجُ في الهَواءِ، يَستَبدُّ المَعلمُ كَرموزُ كَبيرُ فَتَواتِ الحارةِ التي خَنَعَتْ لَهُ، يَندَفِعُ نَحوي هائِجًا والشَّرَرُ يَتَطايَرُ مِن عَينَيهِ، تُغيظُهُ عَضَلاتُ

فتوة السيدة

جَسَدي المُنتَفِخةُ؛ ضَرَبَهُ الزَّمَنُ، أَشبَهُ بِشَجَرةِ الجَمِّيزِ تَسكُنُها النَّملُ، أَدرَكتُ هَذا حينَ أَطَحتُ بِهِ، يَكرَهُ أَن يَكونَ مِثلي هُنا، لا أَتَذَكَّرُ أَنِّي مَسَحتُ لَهُ حِذاءَهُ، تَحاشَيتُ أَن يَراني، هَرَبتُ مِن قَدَري أَلفَ مَرَّةٍ، الآنَ جاءَ إِلَيَّ والحارةُ تَتَرَقَّبُ ضَحيَّةً تَتَصَبَّرُ بِها، تَمَصمِصُ شَفَتَيها، تَتَسَلَّى بِحِكاياتِ كَرموزَ حينَ يَفتَرِسُ واحِدًا مِنَّا، نَلعَنُ عَجزَنا سِرًّا، نَرقُصُ طَربًا حينَ يُسَوِّي بِنا الأَرضَ، ما الَّذي جاءَ بِهِ إِلَيَّ؟ أَتَكونُ تِلكَ خاتِمةَ حَياةِ الذُّلِّ في حارةٍ تَنكَمِسُ في الفَقرِ والمَوتِ، أَم هِيَ لَعبةُ الحَياةِ تَستَمِرُّ إِلى الأَبَدِ وأَكونُ أَنا ضَحيَّتَها الَّتي يَستَمِدُّ مِن دِمائِها قُوَّتَهُ؟

تَتَجَمَّعُ كُلُّ القِطَطِ البَرِّيَّةِ، حَتَّى الكِلابُ تَداعَتْ وراءَهُ، نِسوَانُ الحارةِ يَقِفنَ في هَلَعٍ، لَم يُحاوِلْ واحِدٌ مِن هَؤُلاءِ أَن يَبعُدَهُ عَنِّي؛ إِنَّهُ الحَبلُ على الجَرَّارِ، يَنتَظِرونَ قَدَرَهُمُ الَّذي استَبَدَّ بِهِم، تَوَقَّفَ كُلُّ شَيءٍ لِأَجلِ تِلكَ اللَّحظةِ، إِنَّهُ الخَوفُ الَّذي يَقهَرُ الأَجَراءَ، يَقهَقِهُ ولِصَوتِهِ فَحيحُ الأَفعى الَّتي

فتوة السيدة

ابتَلَعَتْ فِراخَ جارتِنا أُمِّ الأَيتامِ، يَومَها مَزَّقتُها بِأَسناني؛ يَبدو أَنَّ فِعلي أَغضَبَهُ، سِبابُهُ يَملَأُ أُذُني، تَفَلَ في وَجهي، أَمَرَهُم أَن يَربُطوني في حِمارَتِهِ السَّوداءِ؛ سَتَكونُ تَجريسةً لَم تَشهَدْ حارةُ المُقَدَّمينَ مِثلَها؛ يَزدادُ خَوفي، تَسودُ الدُّنيا في وَجهي، لا شَيءَ ورائي أَبكي عَلَيهِ، أَقفِزُ ناحِيَتِهِ، يَتَطايَرُ الرُّعبُ مِن عَينَيَّ، أَفتَرِسُهُ في لَحظةٍ، أَغرِزُ أَسناني في جَسَدِهِ، لا أَجِدُ غَيرَ عَظمٍ يَتَكَسَّرُ؛ إِنَّهُ هَشٌّ لِدَرَجةِ الوَهنِ. تَصيحُ الحارةُ في نَفَسٍ واحِدٍ: عاشَ عاشَ! يَأتونَ إِليَّ بِحِمارةِ كَرموزَ، أَخلَعُ عَنهُ جِلبابَهُ؛ أَضَعُهُ على كَتِفي، يُعَلُّونَني سَيِّدَهُم. يَخطو بِيَ الزَّهو؛ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَمتَلِكُ لَقَبًا أُنادى بِهِ، يَتَمَسَّحُ بِحِماري مَن كانوا مِن ساعةٍ يَركُلونَني بِأَقدامِهِم، حارةُ المُقَدَّمِ تَجِدُ شَبابَها فَهِيَ غَريبةُ الحالِ، لا تَبكي على راحِلٍ، تَخنَعُ لِمَن يَطيحُ فيها بِعَصاهُ، بِنتُ الحَلوانِيِّ ظَهَرَتْ أَمامي، ابتَسَمَتْ في دَلالٍ...





الأديب عبد لله أبو زوير

وادي ماجد

رواية

4

وادي ماجد - 4

أَحَسَّ "عُمَيْرُ" بِالدَّوَرَانِ وَهُوَ يُرَاقِبُ الْأَطْفَالَ يَلْعَبُونَ خَارِجَ الْخِيَمِ، كَانَ يَتَقَدَّمُ أَحَدُهُمْ وَيُثَبِّتُ سَبَّابَةَ يَدِهِ الْيُمْنَى عَلَى الْأَرْضِ وَيَدُورُ حَوْلَهَا بِجَسَدِهِ إِلَى أَنْ يَقَعَ، وَكَانَ الَّذِي يَصْمُدُ أَكْثَرَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَهُوَ يَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ يُصَفِّقُ لَهُ الْآخَرُونَ. اتَّكَأَ عَلَى وِسَادَةٍ خَلْفَهُ عِنْدَ أَحَدِ أَعْمِدَةِ الْخَيْمَةِ وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَشَاهَدَتْ أَطْفَالَ الْقَبِيلَةِ الْأَصْغَرَ سِنًّا مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدُورُونَ حَوْلَ أَنْفُسِهِمْ يَتَغَنَّوْنَ مَعَ دُمُوعِ الرَّحْمَةِ الْمُنْهَالَةِ مِنَ السَّمَاءِ بِأَصْوَاتٍ رَقِيقَةٍ أَشْبَهُ بِغُثَاءِ الْجِدْيَانِ. كَانُوا يَغْنُونَ بِلَهْجَتِهِمْ الْبَدَوِيَّةِ الَّتِي إِذَا مَا حَاوَلْتَ كِتَابَتَهَا بِالْفُصْحَى فَقَدَتِ اتِّزَانَهَا. مَا لِي وَأَنَا وَأَطْفَالٌ يَلْعَبُونَ؟ لَعَلَّ طُفُولَتِي الْبَائِسَةَ الَّتِي مَرَّتْ كَدَهْرٍ هِيَ السَّبَبُ وَرَاءَ مَا كَتَبْتُ. أَتَذَكَّرُ فِي طُفُولَتِي الَّتِي مَرَّتْ وَالِدَتِي وَهِيَ تَسْقِينِي حَلِيبَ حِمَارَتِنَا السَّوْدَاءِ، كَانَ ذَلِكَ لِعِلَاجِ السُّعَالِ الدِّيكِيِّ، وَتَمَنَّيْتُ لَوْ طَالَ السُّعَالُ لِكَيْ أَشْبَعَ مِثْلَمَا يَشْبَعُ الْجَحْشُ، لِأَنَّ حَلِيبَ صَدْرِ أُمِّي لَمْ يَكُنْ يَكْفِي لِقِطٍّ صَغِيرٍ حَدِيثِ الْوِلَادَةِ. أَتَذَكَّرُ أَيْضًا حَادِثَةَ الْخِتَانِ عِنْدَمَا أَصَرَّ وَالِدِي عَلَى خِتَانِي فِي غِيَابِ وَالِدَتِي الْغَاضِبَةِ فِي بَيْتِ أَبِيهَا الَّذِي يَبْعُدُ خَمْسِينَ مِيلًا. كَانَ عُمْرِي عَامَيْنِ، أَمَّا جُرْحِي فَقَدْ كَانَ طُولُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلِأَنِّي صَغِيرٌ وَضَعْتُ يَدِي مَرَّاتٍ عَلَى مَوْضِعِ جُرْحِي. كَانَتْ عِنَايَةُ السَّمَاءِ لِي كَبِيرَةً فَقَدْ طَابَ جُرْحِي رَغْمَ مُعَانَاتِي وَحِيدًا قَبْلَ كُلِّ جُرُوحِ أَطْفَالِ الْقَبِيلَةِ، لَعَلَّ الْحَلِيبَ هُوَ السَّبَبُ. مَا لِي أَنَا وَطُفُولَتِي؟!

فَتَحَ عَيْنَيْهِ بَعْدَ سَمَاعِهِ لِنَهِيقِ الْحَمِيرِ الْقَادِمَةِ تَحْمِلُ الْمِيَاهَ مِنَ الْآبَارِ الْقَرِيبَةِ، وَشَعَرَ بِسَعَادَتِهَا لِلْعَوْدَةِ إِلَى مَرَابِطِهَا مِنْ خَطَوَاتِهَا السَّرِيعَةِ رَغْمَ حُمُولَتِهَا الثَّقِيلَةِ. تَسَاءَلْتُ: لِمَاذَا تَنْهَقُ الْحَمِيرُ حِينَ قُدُومِهَا لِلنَّجْعِ؟ لَعَلَّهُ إِعْلَانٌ بِالْقُدُومِ؛ هَكَذَا تَنْطَلِقُ الْأَبْوَاقُ عِنْدَ قُدُومِ الْعُظَمَاءِ. تَرَجَّلَ إِلَى بَابِ الْخَيْمَةِ بَعْدَ أَنْ

وادي ماجد - 4

شَاهَدَ الْفُرْسَانَ يَتَقافَزُونَ وَهُمْ يَضْرِبُونَ عَلَى مُؤَخَّرَاتِ جِيَادِهِمْ وَيُشَكِّلُونَ صَفًّا وَاحِدًا أَمَامَ الْخَيْمَةِ الْكَبِيرَةِ الْمُعَدَّةِ خُصُوصًا لِاسْتِقْبَالِ وُفُودِ الْقَبَائِلِ. فَهِمَ أَنَّ قَبَائِلَ "الْأَبْيَضِ" بِشِقَّيْهَا "خَرُوفٍ" وَ"سُنْقُرٍ" بَدَأَتْ فِي التَّوَافُدِ. مَا أَنْ فَرَغُوا مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ حَتَّى وَقَفَ وَسَطَ الْخَيْمَةِ فَارْتَفَعَتْ إِلَيْهِ كُلُّ الرُّؤُوسِ. قَالَ: الْقَبَائِلُ الْأُخْرَى تَجْتَمِعُ الْآنَ لِاتِّخَاذِ قَرَارِ الْحَرْبِ وَالْمُقَاوَمَةِ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اغْتَصَبُوا أَرْضَنَا. لَنْ نَكُونَ تَبَعًا لِأَيِّ دَوْلَةٍ غَيْرِ أُمِّنَا "الْكِنَانَةِ"، وَلَنْ نَقْبَلَ احْتِلَالًا عَلَى أَرْضِنَا، وَحَتَّى لَوْ رَحَلُوا إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ سَنَتْبَعُهُمْ. الطُّيُورُ الْقَبِيحَةُ تَقْذِفُ مِنَ الْأَمَامِ وَمِنَ الْخَلْفِ أَيْضًا. أَوْلَادُ "خَرُوفٍ" قَالُوا كَلِمَتَهُمْ وَقَرَّرُوا أَنَّهُمْ جَمِيعًا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَعْطَوْنِي تَفْوِيضًا كَامِلًا بِأَيِّ قَرَارٍ أَتَّخِذُهُ. بَقِيَ قَرَارُكُمْ أَنْتُمْ، لِنَسْمَعْ رَأْيَكُمُ الْآنَ.

جَلَسَ بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَ سُنْقُرٌ بِخَطَوَاتٍ هَادِئَةٍ إِلَى حَيْثُ مَا كَانَ يَقِفُ "عُمَيْرُ". وَقَفَ صَامِتًا إِلَى أَنْ أَسْكَتَ بِصَمْتِهِ هَمْهَمَاتِ الرِّجَالِ مِنْ حَوْلِهِ. قَالَ: الشَّجَاعَةُ لَا تَنْقُصُنَا وَلَنْ نَرْضَى بِاحْتِلَالِ أَرْضِنَا. خُيُولُنَا دَائِمًا فِي الْمُقَدَّمَةِ، وَقُوَّاتُنَا وَاحِدَةٌ لِأَنَّنَا أَبْنَاءُ رَجُلٍ وَاحِدٍ. نَعِيشُ مَعًا وَنَمُوتُ مَعًا.

زَادَ التَّوَتُّرُ فِي كُلِّ الْبُيُوتِ دُونَ أَنْ يَدْرِيَ كُلُّ بَيْتٍ مَا يَدُورُ فِي الْبَيْتِ الْآخَرِ. امْتَلَأَ بَيْتٌ فِي أَقْصَى النَّجْعِ بِرِجَالٍ يُحَدِّقُونَ بِعُقُولِهِمْ لِيَعْرِفُوا سَبَبَ اجْتِمَاعِهِمْ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ وَالسِّرِّيَّةِ الْمُرِيبَةِ. كَانَتِ الْبَهْجَةُ غَائِبَةً تَمَامًا عَنْ رُوحِ "قَنَاشٍ"، وَكَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ يَوْمًا إِحْدَى سِمَاتِ وَجْهِهِ الْأَسْمَرِ، بَيْنَمَا "عُشَيْبِيٌّ" وَ"كَمِيلِيٌّ" وَ"مَالِكٌ" وَ"الْأَقْطَعُ" يَتَبَادَلُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ الْهَامِسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ. أَوَّلُ مَنْ تَحَدَّثَ كَانَ "الْأَقْطَعُ" وَطَلَبَ التَّأْجِيلَ لِحِينِ إِخْطَارِ قَبَائِلِهِ الْقَاعِدَةِ بِمَدِينَتَيْ "السَّلُومِ" وَ"بُرَّانِي"، وَلَكِنَّ "عُشَيْبِيَّ" اعْتَرَضَ

وادي ماجد - 4

قائِلًا: سَيَأْتِي دَوْرُهُمْ فِيمَا بَعْدُ، وَالتَّأْخِيرُ لَيْسَ فِي صَالِحِنَا، وَسَيَفْقِدُنَا عُنْصُرَ الْمُفَاجَأَةِ الَّذِي نَعُولُ عَلَيْهِ كَثِيرًا. جَلَسَ "الْأَقْطَعُ" يَتَمْتَمُ بِكَلَامٍ لَمْ أَسْمَعْهُ، وَلَكِنَّ سِمَاتِ وَجْهِهِ كَانَتْ غَاضِبَةً. وَقفَ "مَالِكٌ" بَعْدَهَا وَلَاذَ بِالصَّمْتِ قَلِيلًا مِنَ الْوَقْتِ يُحَدِّقُ فِي أَرْجَاءِ الْبَيْتِ. شَعَرْتُ مِنْ صُعُودِ صَدْرِهِ أَنَّ الْهَمَّ يُجْلجِلُهُ. تَحَدَّثَ بَعْدَ أَنْ مَطَّ شَفَتَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَامَنَا طَرِيقٌ طَوِيلٌ وَلَابُدَّ أَنْ نَقْطَعَهُ أَوْ أَنْ نَمُوتَ دُونَهُ، وَلَكِنَّنَا لَنْ نَتْرُكَهُ. إِنَّهُ طَرِيقُ الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ تَحْرِيرِ أَرْضِنَا الْمُغْتَصَبَةِ. تُرَابُنَا غَالٍ، وَلَنْ نَدَعْ نُجُومَ سَمَائِنَا تُضِيءُ عَلَى غَيْرِنَا فِي أَرْضِ صَحْرَائِنَا الْأَبِيَّةِ. تَحَدَّثَ كَمِيلٌ بَعْدَهَا وَكَانَ لِصَوْتِهِ نَبْرَةٌ وَاثِقَةٌ وَقَالَ: حِينَمَا نَقْدَحُ زِنَادَ الْجِهَادِ فَلَابُدَّ أَنْ نَعْشَقَ الْمَوْتَ مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ ثَمِينٍ وَغَالٍ، وَهَذَا الْغَالِي هُوَ الْوَطَنُ، وَعِنْدَهَا نَكُونُ قَدْ فَاضَلْنَا بَيْنَ بَقَائِنَا أَحْيَاءَ وَتَرْكِ الْوَطَنِ يَغْتَصِبُ، وَبَيْنَ الْمَوْتِ مِنْ أَجْلِهِ وَتَرْكِهِ حُرًّا، وَلَا شَكَّ أَنَّنَا اخْتَرْنَا الْخِيَارَ الْأَخِيرَ. كَانَتْ مَشَاعِرُ الْكُرْهِ تَغْمُرُ "قَنَاشٍ" مِنْ قَدَمِهِ إِلَى رَأْسِهِ تِجَاهَ هَؤُلَاءِ الْمُحْتَلِّينَ. كَانَ وَجْهُهُ مُتَجَهِّمًا وَيَجُولُ بِنَاظِرَيْهِ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْبَيْتِ، وَكَأَنَّهُ اللِّقَاءُ الْأَخِيرُ مَعَهُمْ فَوْقَ الْأَرْضِ. لَعَلَّهُ مُحِقٌّ فِي ذَلِكَ. قَالَ بِصَوْتٍ أَجَشَّ وَبِنَبْرَةٍ حَزِينَةٍ: لَا شَكَّ أَنَّنَا سَنُدَافِعُ عَنْ جُزْءٍ هَامٍّ مِنْ أَرْضِ "الْكِنَانَةِ". شَعْبُنَا كُلُّهُ سَيُرَاقِبُ جِهَادَنَا بِقَلَقٍ وَشَغَفٍ كَبِيرَيْنِ، وَسَيَضَعُ إِمْكَانِيَّاتِهِ الذَّاتِيَّةَ الْمَحْدُودَةَ رَغْمَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ عَنَاءٍ تَحْتَ إِمْرَتِنَا حَالَمَا طَلَبْنَا ذَلِكَ. وَبِالرَّغْمِ أَنَّنَا لَمْ تَنْقُصْنَا الشَّجَاعَةُ، إِلَّا أَنَّ ثُوَّارَ "الْقَاهِرَةِ" أَرْسَلُوا لَنَا قَائِدًا عَسْكَرِيًّا شُجَاعًا لَمْ يَصِلْ بَعْدُ، وَلَكِنَّهُمْ أَخْبَرُونِي أَنَّهُ فِي الطَّرِيقِ الْآنَ، وَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ وَصَلَ فِي مَكَانٍ مَا بِـ"مَطْرُوحٍ".

كَانَ اجْتِمَاعُ قَبَائِلِ "أَبُو سَنٍّ" طَوِيلًا. بِالْكَادِ وَقفَ رَجُلٌ هَرِمٌ عَلَى وَجْهِهِ عَلَامَاتُ الصَّلَاحِ، وَلَاذَ الْجَمِيعُ

وادي ماجد - 4

بِالصَّمْتِ. بِالْكَادِ كَانَتْ سَاقاهُ تَحمِلَانِهِ.
وَقالَ: خَلِيقٌ بِنَا أَنْ نَخافَ الْحَيَاةَ مَعَ هَؤُلَاءِ. صَحْرَاؤُنَا مَلِيئَةٌ بِالْأَفَاعِي وَالْعقارِبِ وَالذِّئَابِ، وَلَكِنَّهَا جَمِيعًا لَيْسَتْ أَخطَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَاءُوا تَحْتَ قِيَادَةِ الشَّيْطَانِ مِنْ أَجْلِ احْتِلَالِ أَرْضِنَا وَمُمَارَسَةِ الذُّلِّ عَلَيْنَا لِنَكُونَ عَبِيدًا لِسَيِّدٍ وَرَاءَ الْبِحَارِ غَيْرِ الرَّبِّ الَّذِي فِي السَّمَاءِ. إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَسَيْطِرُوا عَلَى كَامِلِ الْأَرْضِ لِيُغَيِّرُوا نَوَامِيسَ الْكَوْنِ وَمَنَائِرَ الْمَسْكُونَةِ. لَا شَكَّ أَنَّ أَحْرَارَ الْعَالَمِ يَرْفُضُونَ أَهْدَافَهُمْ، وَالْكَثِيرُ مِنْهُمْ يُقاتِلُونَهُمْ. نَحْنُ أَيْضًا أَحْرَارٌ، وَقدَرُنَا أَنْ نُحارِبَهُمْ وَنُقاتِلَهُمْ، فَالْحَرْبُ قدَرُ الْأَحْرَارِ. كُنْتُ أَتَمَنَّى مِثْلَ أَيِّ هَرِمٍ أَنْ أَقْضِيَ بَقِيَّةَ أَيَّامِي فِي سَلَامٍ، وَلَكِنَّ الْقدَرَ حَالَ دُونَ ذَلِكَ. لَعَلَّهُ خَيْرٌ، وَلِكَيْ أَرَى شَبَابَ قبَائِلِنَا وَهُمْ يُدَافِعُونَ عَنْ أَرْضِهِمْ بِجَسَارَةِ الصُّقُورِ، وَيُسَطِّرُونَ التَّارِيخَ بِدِمَائِهِمْ الزَّكِيَّةِ، وَيَعْتَلُونَ الثُّرَيَّا بِأَمْجَادٍ جَدِيدَةٍ مِثْلَمَا فَعَلَ

الْأَجْدَادُ قبْلَهُمْ. كَانَتْ كَلِمَاتُهُ قوِيَّةً رَغمَ ارْتِعَاشِ جَسَدِهِ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ وَتَوَعُّكِ حَالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ. مَا كَادَ يَجْلِسُ حَتَّى سَمِعَ هَدِيرَ رَعْدٍ اعْقبَهُ وَمِيضُ بَرْقٍ أَنَارَ التِّلَالَ الَّتِي أَمَامَهُ. بِالْكَادِ اعْتَدَلَ وَاقِفًا وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ بِأَصَابِعَ كَأَطْرَافِ مِذْرَاةِ سَنَابِلَ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مُرْتَعِشَةً، وَدَعَا لِكُلِّ مَنْ حَوْلَهُ ثُمَّ إِلَى الْقبَائِلِ وَإِلَى مِصْرَ، وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ يُؤَمِّنُونَ مَعَ دُعَائِهِ. أَمَّا بَيْتُ "جُمُعَةَ" فقدْ كَانَ عَلَى مَا يَبْدُو أَنَّهُمْ قدْ تَشَاوَرُوا لَيْلًا، وَكُلُّ مَا دَارَ فِي اجْتِمَاعِهِمْ كَيْفِيَّةُ تَوْفِيرِ التَّجْهِيزَاتِ لِلْفُرْسَانِ.

خِبَاءً، كَانَتْ جِيَادُ عُمَدِ الْقبَائِلِ تَتَّجِهُ نَاحِيَةَ الْغَرْبِ قاصِدَةً دَوَّارَ "الْعَاصِي".

تَخَلَّفَ "عَزُومِيٌّ" فقطْ لِسَبَبِ انْتِظَارِهِ لِضَابِطِ الْجَيْشِ الْأَسْمَرِ وَرِفَاقِهِ.

ذَكَرَ الْعَمِيدُ مَحْمُودُ عَبْدُ الْوَاحِدِ عَلِيّ فِي مَذَكِّرَاتِهِ: (أَمَرَنَا الْقومَنْدَانُ صَالِحُ حَرْبٍ بِالْبَقاءِ فِي مَكَانِنَا وَانْتِظَارِهِ حَتَّى يَعُودَ، فذَهَبَ عَلَى حِصَانِهِ بِمُفْرَدِهِ ثُمَّ

وادي ماجد - 4

عَادَ وَمَعَهُ الشَّيْخُ فَرَجُ أَبُو زُهَيْوِيقَ عُمْدَةُ "مَطْرُوحٍ" عَلَى حِصَانٍ آخَرَ، وَبَدَأَتْ حَرَكَةُ الْمَسِيرِ فِي تِلْكَ النُّقْطَةِ إِلَى جِهَةِ الْغَرْبِ، وَكُلَّمَا مَرَّا عَلَى نَجْعٍ مِنْ نُجُوعِ الْعَرَبِ سَارَعُوا لِمُقَابَلَتِهِمَا وَالِانْضِمَامِ إِلَيْهِمَا، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى نَجْعِ "الْعَاصِي" مِنْ قَبَائِلِ "الْقُنَيْشَاتِ أَوْلَادِ عَلِيٍّ". "انْتَهَى الِاقْتِبَاسُ".

أَمَّا صَالِحُ حَرْبٍ فَقَدْ قَالَ فِي مَذَكِّرَاتِهِ: (لَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ لَقُلْتُ لِآلِ "الْعَاصِي ادْخُلُوا بِسَلَامٍ". وَقَالَ أَيْضًا: طَرَقْنَاهُمْ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ فَهَبُّوا كِرَامًا، وَعَلَى رَأْسِهِمْ "حَمِيدَةُ الْعَاصِيِّ" وَ"حُسَيْنُ الْعَاصِيِّ"، فَرَحَّبُوا بِقُدُومِنَا أَيَّ تَرْحِيبٍ، وَطَرِبُوا أَيَّ طَرَبٍ عِنْدَمَا عَلِمُوا وِجْهَتَنَا، وَفِي الْحَالِ نُحِرَتِ الذَّبَائِحُ وَزَغْرَدَتِ النِّسَاءُ، وَمَضَتِ اللَّيْلَةُ دُونَ أَنْ تَغْمَضَ لَنَا عَيْنٌ، وَطَيَّرُوا الْخَبَرَ بِالْخَيْلِ غَرْبًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا).

وَيَقُولُ أَيْضًا: (رَأَوْا خُرُوجَ الْعُمْدَةِ وَاسْتِقْبَالَ الْعَرَبِ وَجَمِيعِ الْقَبَائِلِ، وَالَّتِي قَدِمَ بَعْضُهَا قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ بِمُجَرَّدِ أَنْ وَصَلَهُمُ النَّذِيرُ). "انْتَهَى الِاقْتِبَاسُ".

كَانَ عُمَدُ قَبَائِلِ الْأَحْمَرِ فِي اسْتِقْبَالِ عُمَدِ الْقَبَائِلِ الْأُخْرَى الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى بَيْتِ الْعَاصِي عِنْدَ الْغُرُوبِ. جَلَسُوا مُتَقَابِلِينَ، بَعْدَ التَّشَاوُرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ قَرَّرُوا تَكْلِيفَ "قَنَاشٍ" بِقِيَادَةِ الْقَبَائِلِ، ثُمَّ انْضَمُّوا إِلَى بَقِيَّةِ فُرْسَانِ الْأَحْمَرِ فِي بَيْتِ الشِّعْرِ الْمَنْصُوبِ خَارِجَ الدَّوَارِ. مَا أَنْ جَلَسُوا حَتَّى جَاءَ طَابُورٌ مِنَ الشَّبَابِ يَحْمِلُونَ قِصَاعَ الطَّعَامِ الَّذِي أُخْرِجَ لِلتَّوِّ مِنَ الْمَرَاجِلِ، وَالْبُخَارُ يَصَاعِدُ مِنْ كُلِّ قَصْعَةٍ يَحْمِلُونَهَا. تَحَرَّكَ الْجَمِيعُ وَشَكَّلُوا دَوَائِرَ بِشَكْلٍ رَائِعٍ، كَمَا لَوْ أَنَّهُمْ تَدَرَّبُوا عَلَى ذَلِكَ عِدَّةَ أَشْهُرٍ. مَا أَنْ فَرَغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ حَتَّى بَدَأَتْ وُفُودُ الْفُرْسَانِ تَصِلُ إِلَى هُنَاكَ، وَعِنْدَهَا اضْطَرَّ "قَنَاشٍ" إِلَى جَمْعِ نِسَاءِ النَّجْعِ فِي خَيْمَتَيْنِ، وَتَرْكِ بَاقِي الْخِيَمِ لِلضُّيُوفِ. وَعَلَى غَيْرِ عَادَاتِ أَهْلِ الصَّحْرَاءِ بَقُوا جَمِيعًا يَقْظِينَ

وادي ماجد - 4

حَتَّى الْأَطْفَالُ؛ كَانُوا يَطُوفُونَ عَلَى الْفُرْسَانِ بِالشَّايِ السَّاخِنِ وَأَكْوَابِ الْمَاءِ، وَتَغْمُرُهُمْ سَعَادَةٌ بَالِغَةٌ. لَا أَكَادُ أَفْهَمُ شَيْئًا مِنَ الْهَمْهَمَاتِ فِي كُلِّ الْخِيَمِ، وَظَنِّي أَنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا. تَرَامَى إِلَى مَسَامِعِي صَهِيلُ خَيْلٍ خَلْفِي، وَشَاهَدْتُ الْعُمَدَ يَصْطَفُّونَ خَارِجَ الدَّوَارِ رَغْمَ الْبَرْدِ وَالرِّيَاحِ. لَا أَدْرِي مَنِ الْقَادِمُ. انْتَفَضْتُ مَعَ انْطِلَاقَةِ الزَّغَارِيدِ فَجْأَةً فِي دَجْنَةِ اللَّيْلِ، وَشَاهَدْتُ "عَزُومِيَّ" وَالضُّبَّاطَ يَتْرُكُونَ جُمَّةَ خُيُولِهِمْ لِشَبَابٍ كَانُوا فِي اسْتِقْبَالِهِمْ، وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى صَفِّ الْعُمَدِ بِخَطَوَاتٍ ثَابِتَةٍ قَوِيَّةٍ فَوْقَ الصُّخُورِ. ابْتَسَمَ الضَّابِطُ الْأَسْمَرُ فِي دَجْنَةِ اللَّيْلِ، وَشَعَرَ بِسَعَادَةٍ بَالِغَةٍ مِنْ كَرَمٍ وَجُودٍ لَمْ يَعْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ أُنَاسٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَوْتِ سَاعَاتٌ قَلِيلَةٌ. سَمِعْتُ غُثَاءً، وَرَأَيْتُ نِيرَانًا تُوقَدُ، وَفَهِمْتُ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْمِعْزَى وَالْأَغْنَامِ قَدْ نُحِرَتْ بِقُلُوبٍ قَاسِيَةٍ وَأَمْوَاسٍ حَامِيَةٍ بِسُرْعَةٍ كَبِيرَةٍ. عَلَى الْفَوْرِ شَكَّلُوا مَجْلِسَ قِيَادَةِ الْمُقَاوَمَةِ، وَدَفَعَتِ الْقَبَائِلُ بِـ"قَنَاشٍ" وَ"عَزُومِيَّ" وَ"كَمِيلٍ" وَ"أَبُو سَنٍّ" وَ"عُمَيْرٍ" وَ"عُشَيْبِيٍّ" وَ"جُمُعَةَ" وَ"الْأَقْطَعِ" الَّذِي أَصَرَّ أَنْ يَكُونَ فِي الْمُقَدَّمَةِ. لَا أَدْرِي مَا حَدَثَ حِينَ انْتَفَضَ أَحَدُ الضُّبَّاطِ وَ"الثَّعْلَبُ" بِأَمْرٍ مِنَ الْقُومَنْدَانِ الْأَسْمَرِ، وَخَرَجَا مَعًا إِلَى أَسْفَلِ الْوَادِي. وَبَعْدَهَا سَمِعْتُ سَحَالَ بِغَالٍ تَجُرُّ عَرَبَةً. حَدَّقْتُ فَاغِرًا الْفَاهَ وَسَطَ الظَّلَامِ بَعْدَ أَنْ شَاهَدْتُ مَدْفَعًا خَلْفَ الْبِغَالِ، وَهُمَا يَتَّجِهَانِ إِلَى تَلَّةٍ فَوْقَ تَلَّةٍ فَوْقَ وَادِي مَاجِدٍ مُبَاشَرَةً. لَمْ تَغْمَضْ عَيْنٌ فِي كُلِّ الْخِيَمِ. شَاهَدْتُ الْقُومَنْدَانَ يَخْرُجُ وَيَمُرُّ بِجِوَارِ حَظِيرَةٍ خَلْفَ النَّجْعِ. مَا أَنْ اقْتَرَبَ حَتَّى تَدَافَعَتِ الْمِعْزَى ذُعْرًا، وَتَقَافَزَتِ الْجِدْيَانُ بَعِيدًا. ابْتَسَمَ لِسَمَاعِهِ ثغاء الْجِدْيَانِ الرَّقِيقِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ سَبَبُ الثغاء الْمُتَكَرِّرِ، حَيْثُ كَانَ ذَبْحُ أُمِّهِمْ إِكْرَامًا لِقُدُومِهِ.





مي خصّابه ..

حتى والمطر في عامها

صبّابه ..

لا تبذر ابذارك في ارض

عياد أبو الحجل المحفوظي

شاعر البادية النبيل

مي خصّابة

مي خصّابه

..

حتى والمطر في عامها صبّابه

..

لا تبذر ابذارك في ارض

يا قرقاحه يا بايره فيها سبخ ملاّحه
عالم ادير الحنضله تفاحه
ومامن اللي خلوه ساب اثيابه

..

تشكر ادیار الحبس لك براحه
والله ما اشكورها عمر جابت صابه

..

ايش العجب تاركينها فلاحه
مااطولها منهم وهي خصابه

..

لوكان زرعها يجعب الناس اقماحه
راهم عليها سابقوك طرابه

..

حوز العطيب اشوي ربح ارباحه
معروف الحنش لونه بلون اترابه

..

مي خصّابة

يجيرك الله من ضي بوقداحه
علي نور ضيه ماتحق اجنابه

..

ينوض الجمل وايسب في
مطراحه
حشاكم ويخلط منسمه في البابه

..

خليك في وطاه لها اميوح ركاحه
يغنيك خيرها باول مطر في بابه

..

تريد الصراحه هذي هي الصراحه
رد بالبذار أن ريت طير اغرابه

..

ما راعن اغراب اوجين الناس
فراحه
والله ما اصبحبه أورد اتعابه

..

خذا سو فارد في سماه جناحه
الا البوم يسكن في القبور خرابه

..

لوكانت عقاب القافيا مباحه
ميط من سبب مافي ما لك جابه

..

كتاب

الواحات المفقودة

الفصل الخامس

السنوسيون

للجغرافي الرحالة

أحمد حسنين باشا

تقديم :

عصمت ضيف لله الملطاني



الفصل الخامس - السنوسيون

لا يكتمل سرد قصة عن صحراء ليبيا من دون ذكر السنوسيين الذين يشكلون أهمّ عامل من عوامل النفوذ في تلك المنطقة. وهذا الموضوع كبير يستحق أن يفصل في كتاب خاص ولكني سأقدّم للقارئ في هذا الفصل القصير أهم المحطات في تاريخ السنوسيين.لا يكوّن السنوسيون شعباً أو مملكة أو وحدة سياسية أو دينية وإن كانوا يتمتعون بكثير من هذه الخصائص الأربع في الواقع، إنّهم من البدو الذين يسكن معظمهم في صحراء ليبيا، ويبسطون نفوذهم على مساحة كبيرة من تلك المنطقة. وتقرّ حكومات المنطقة بأنهم يشكلون قوّة حقيقية في شؤون شمال شرق أفريقيا، وهم مسلمون. وقد يكون أفضل وصف لهم أنهم رابطة دينية ذات زعامة وراثية ونفوذ قوي في إدارة شؤون سكان صحراء ليبيا. ويمكن تقسيم تاريخ هذه الطائفة إلى أربعة عصور، حيث اكتسبت الطائفة صبغتها في كلّ عصر منها وفق شخصية الزعيم. وكان الزعماء الأربعة على التوالي السيّد محمد بن علي السنوسي وهو مؤسس الطائفة، وابنه السيد المهدي والسيد أحمد وهو ابن أخي المهدي، وزعيم الطائفة الحالي السيد إدريس بن المهدي.

وُلد السيد محمد بن على السنوسي المعروف بالسنوسى الكبير في الجزائر العام 1202 هجرية، وهو من نسل الرسول ، وتلقى دراسة فريدة من نوعها في جامعة القيروان وفي فاس وفي مكة، حيث أخذ العلم عن الفقيه الشهير سيدي بن إدريس الفاسي. وقد مالت نفسه إلى التقشف، وأيقن أن الدين الاسلامي يفتقر للرجوع إلى تلك الصورة الخالصة التي وضعتها تعاليم النبي محمد . وقد اضطر أن يترك مكة في السنة الأولى بعد أن بلغ سن الخمسين، مدفوعاً بمعارضة الفقهاء المتقدمين في السنّ الذين خالفوه في بعض آرائه الدينية، فعاد عن طريق مصر إلى برقة، وأخذ يؤسس المعاهد لنشر تعاليمه بين أهل البادية. وسنتناول في شرح هذه التعاليم ذكر ثلاثة أشياء لا مندوحة من تفسيرها لتوضيح النصّ، وهي الزاوية والإخوان والوكيل.

أما الزاوية فهي بناء مكوّن غالباً من ثلاث غرف ويتوقف حجمها على أهمية المكان الذي تقام فيه. وتستخدم إحدى هذه الغرف لإعطاء الدروس التي يتلقاها صغار البدو عن الإخوان، والثانية

لاستضافة المسافرين لتمضية ثلاثة أيام التي يقضى بها كرم البدو، والغرفة الثالثة ليسكن فيها الإخوان وتبنى الزاوية عادة بالقرب من بئر يقف عندها المسافرون كما يجاور الزاوية في أغلب الأحيان مساحة أرض معينة يزرعها الإخوان.

والإخوان هم الأعضاء الناشطون في هذه الطائفة، وهم الذين ينشرون تعاليمها وأهدافها. والإخوان تسمية تطلق على المفرد والجمع في اصطلاحهم. وأما الوكيل فهو ممثل شيخ السنوسيين والقائم مقامه بالأمر. رأى مؤسس هذه الطائفة مسلمي برقة تائهين في الضلال، معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية فأراد أن ينتشلهم من وهدة السقوط. وسنعرض بعض الأمثلة لبلورة هذه النقاط.

أسس بعض أصحاب النفوذ، من شيوخ البدو في الجبل الأخضر شمال برقة، ضرباً من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذي قضى الاسلام بالحجّ إليه لكل من استطاع إليه سبيلاً. وقد أراد مؤسّسو هذه الكعبة المزيفة أن يقنعوا البدو أن زيارتها تقوم مقام حجّ بيت الله الحرام. بالاضافة إلى ذلك، أراد أولئك الشيوخ أن يتخلصوا من صوم رمضان والانقطاع فيه إلى العبادة، فاختلقوا لذلك بدعة تقضي بأن يذهبوا قبل حلول رمضان بأيام إلى وادٍ يدعى وادي زازا، وهو معروف بقوّة ارجاع الصدى الذي تردّده جوانبه، ثمّ يصرخون جميعاً سائلين: يا وادي زازا أنصوم رمضان أم لا؟ فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة من هذه الجملة وهي لا لا. ويتصوّر من سأل ذلك الوادي أنهم أصبحوا في حلّ من الصوم، فيفطرون غير مقيدين بأوامر الدين الحنيف، مقتنعين بأن الأمر صدر إليهم بعدم الصوم.

والجدير بالذكر أنه في بداية تعاليمه أقيمت الصلاة فدخل المسجد أعرابي يُدعى مجرم، ووقف في الصف الأوّل يصلّي لأوّل مرّة، فقرأ الإمام آية ألم نُهلك الأولين فرجع إلى الصف الثاني فقرأ الإمام ثم تتبعهم الآخرين له فرجع مجرم إلى الصف الأخير، عندها قرأ الإمام كذلك نفعل بالمجرمين. فخرج مجرم من بين بين المصلين يعدو مهرولاً إلى داره. فسألته زوجته وقد رأته مضطرباً ما خطبه؟ فقال: «ها دوّة الصلاة دوّة وعرة، هلك الأوّلين عدتُ إلى الوراء، هلك الآخرين عدتُ إلى الوراء، نادى بالاسم يا مجرمين، عدوت». وكان من بين البدو الذين ينتمون إلى تلك المناطق عادات قديمة لا تزال

الفصل الخامس - السنوسيون

قائمة، فكانوا يقتلون البنات خشية أن يجلبن لهم العار. وهذه العادة السيئة تحول بين هؤلاء القوم وبين التقدم إلى نخبة ناشري الدعوة للإسلام. رأى مؤسس الطائفة السنوسية كلّ ذلك، فحاول، من خلال تعاليمه وإرشاداته، أن يعود بالإسلام إلى قواعده في ذلك العهد الطاهر. وأسس السيد محمد بن علي السنوسي أوّل زاوية في أرض أفريقية في واحة سيوة، وتقدّم من تلك المنطقة غرباً إلى برقة فأسس الزوايا في جالو وأوجلة. وتوغل غرباً في طرابلس وتونس ينشر تعاليمه بين البدو وكانت قد سبقته إلى تلك المناطق شهرته الدينية والعلمية، فطلب شيوخ البدو أن يزورهم وتنازعوا في سبيل إكرامه وعاد إلى برقة العام 1258 هجرية أي السنة 1843 ميلادية، فأسس زاوية كبيرة في الجبل الأخضر بالقرب من درنة ودعاها الزاوية البيضاء. ولم يكن له حتى هذا العهد مركز ثابت لأنه كان كثير التجوال ينشر تعاليمه في كلّ مكان فأقام في الزاوية البيضاء واستقبل الزوّار من رؤساء قبائل برقة. وكانت أهم تعاليم شيخ السنوسيين الدعوة إلى الدين الإسلامي الحق، والتمسك الشديد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم. وهناك فقرة من كتابه إلى أهل واجنجة في واداي تدلّ على تعاليمه خير دليل وهي: «أسألكم بإسم الإسلام أن تطيعوا الله ورسوله، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ » ويقول : من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ، ويقول : وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَيكَ رَفِيقًا (1). أسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله، فتؤدّوا الصلوات الخمس وتصوموا رمضان، وتؤتوا الزكاة وتؤدوا فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وتجتنبوا ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة، وابتزاز أموال الناس، وشرب الخمر، وتأدية شهادة الزور، وغير ذلك مما أمرنا الله باجتنابه. فإذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عمّا نهى عنه، أنزل عليكم نعمته الأبدية، ومنحكم الخير والرزق الدائمين.

وكان أهمّ ما عني به مؤسّس الطائفة السنوسية الدعوة إلى الحياة الدينية الطاهرة، فلم يعمل لأن يكون زعيماً سياسياً أو صاحب قوّة زمنيّة. وكان في كل أعماله مثالاً صالحاً للتقوى التي دعا الناس إلى التحلّي بها. ولم تكن له تعاليم خاصة في الفقه

أو آراء شخصية في تفسير قواعد الدين. وكان أكبر همه اتباع رجاله قواعد الإسلام، لا الإكثار من وضع العقائد والشيء الوحيد الذي أضافه إلى العبادات الدينية هو دعاء وضعه وردّده السنوسيون بعد ذلك، وكان هذا الدعاء يحمل إسم (حزب»، وهو لا يتعارض البتة مع تعاليم الفقهاء السابقين ولا يضيف شيئاً عما نزل به القرآن الكريم، وإنما هو تعبير موافق لما جاء في مُحكم التنزيل، ولكن بلغة مختلفة. وقد جاء في كتابه إلى أهل واجنجة، الذي سبقت الاشارة اليه فقرة أخرى تبيّن الفكرة التي أقام عليها دعوته في سبيل ارضاء الله وخدمة الدين وهي تنبيه الغافل وتعليم الجاهل وهدي من ضل سواء السبيل». وقد نهى عن حياة الترف كلّ من انضم إلى طائفته، فمنع امتلاك الذهب والجواهر إلا في حلى النساء، كما حرّم تدخين التبغ وشرب القهوة. ولم يأمر كذلك بطقوس أو فروض جديدة، وإنّما طلب من الناس أن يتبعوا قواعد الدين في أبسط مظاهره، كما أنزله الله على رسوله الكريم. وكان لا يجيز اتصال رجاله بالأجانب، ليس فقط بالمسيحيين واليهود، بل أيضاً بأهل البلاد الاسلامية التي يعتقد أنّها حادت عن الدين

الحنيف، وذلك كي لا يفسدوا عليهم عقائدهم وكي تتأصل تعاليمه في نفوسهم. وفي سنة 1270 هجرية (1)، أسس السيد محمد بن علي في جغبوب الزاوية التي أصبحت بعد ذلك مركز العلوم والعرفان للطائفة السنوسية. ولم يكن اختياره جغبوب عن طريق الصدفة أو بحسب اتفاق، وانّما نظر في اختياره هذا بعين الحكمة والرويّة، فأراد أن تكون هذه الزاوية مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية الاسلام بينهم جميعاً. وقد جاء في خطابه المتقدّم إلى أهل واجنجة وهم من العرق الأسود: يا أهل واجنجة إننا نريد نشر السلام بينكم وبين أهل العرب الذين يحتلون بلادكم ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم، وإننا بذلك نقوم بما أمر به في كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) ، ويقول الله عزّ وجلّ: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ). وشكلت جغبوب مركزاً استراتيجياً لتحقيق هدفه، فهي وسط قبائل في الشرق والغرب تتنازع باستمرار. فاستطاع السنوسي الكبير، وبفضل مقرّه

الرئيسي هناك، إستطاع أن يبسط نفوذه على المتنازعين، وأن يصلح في ما بينهم، كما أمر الرسول. ومن الناحية العملية، لم تكن جغبوب مكاناً يصلح لأن يكون مركزاً علمياً أو دينياً، وفق ما اعتقد السنوسي الكبير ، لأنّها لا تتمتع بخصوبة الواحات إن صح أن تسمى واحة. فالنخيل فيها قليل والماء غير عذب والتربة غير صالحة للزراعة. ولكن لا خلاف على أهمية موقعها الاستراتيجي، ولذلك اتخذها مقراً له من دون تردد. وبالفعل، انتهت بعد إقامته هناك تلك النزاعات التي كانت قائمة بين قبائل الشرق والغرب، وكان له الفضل في إيقافها. ولم يقتصر نفوذه على تلك المناطق، بل تعداها إلى قبائل برقة، فقضى على ما كان بينها من عداء قائم منذ زمن بعيد.
وعاش السيد محمد بن علي السنوسي ست سنين بعد أن اتخذ جغبوب محلاً لإقامته، ومد نفوذه شرقاً وغرباً حتّى دعته إلى الكفرة قبيلة زويّ»، التي اشتهر رجالها بأنهم قطاع طريق برقة، وكانوا معروفين بين العرب بأنّهم لا يخافون الله ولا يخشون الناس، وطلبت منه أن يؤسس زاوية هناك. وقد وافقوا على أن يوقفوا النزاعات والنهب ومهاجمة القبائل الأخرى، وعرضوا عليه ثلث أملاكهم في الكُفرة إذا رضي بأن يوفد إليهم أحد إخوانه، ينشئ بينهم زاوية حيث ينشر فيها تعاليمه ويعلم أبناءهم ولم يتمكن السيد من الذهاب بنفسه، فأرسل أحد أبرز الإخوان وهو سيدي عمر أبو حواء، فأسّس زاوية في جوف في الكُفرة، وبدأ ينشر تعاليم السنوسي الكبير بين أهالي قبيلة «زوي». وأرسل السنوسي إخواناً آخرين إلى جهات أخرى من صحراء ليبيا، ولم يدركه الموت حتى أصبح جميع البدو المقيمين على حدود مصر الغربية وفي جميع نواحي برقة وطرابلس تلامذته وأتباعه. وقد مات سنة 1276 هجرية في الرابعة والسبعين من عمره ، ودفن في القبر الذي ترتفع فوقه القبة الشهيرة في جغبوب.
وخلف السنوسي الكبير ولده سيدي محمد المهدي، وكان في السادسة عشرة من عمره عندما توفي أبوه. وعلى الرغم من صغر سنه، ساهم عاملان مهمان في تعزيز مركزه بين السنوسيين، أولهما أنه في إحدى المناسبات كان يتواجد في مجلس أبيه وأراد الانصراف فقام أبوه وأصلح وضع حذائه بنفسه، وكان قد خلعه قبل أن يدخل. ثم التفت بعد

ذلك إلى الحاضرين وخاطبهم قائلاً: «اشهدوا أيها الحضور أن ابن علي أصلح بنفسه وضع حذاء ولده المهدي، وقد فهم الناس عندئذٍ أنه أراد بذلك أن يشعرهم بأنّ الولد لن يخلف أباه فحسب، بل إنه سيتخطاه في صلاحه وتقواه . أما العامل الثاني فهو أنه جاء في إحدى النبوءات القديمة أنّ المهدي المنتظر الذي سيرفع لواء الإسلام في النهاية سيصبح في سنّ البلوغ في اليوم الأوّل من محرّم سنة 1300 هجرية، يولد من أب اسمه محمد وأمّ اسمها فاطمة. وقد جمع المهدي في نفسه كلّ الصفات التي قيل إنّها وردت في أحد كتبهم، ولذلك تم اختياره خلفاً لكبير السنوسيين. وانتشرت زوايا السنوسيين حتى أصبحت، عند بلوغ السيد المهدي، ثمانية وثلاثين زاوية في برقة وثماني عشرة في طرابلس. وانتشرت غيرها في بقاع أفريقيا الشمالية، بالإضافة إلى عشرين زاوية تقريباً في مصر. وقد قدّر عدد من انضم إلى الطائفة السنوسية وأقرّ بالزعامة الدينية للمهدي، عندما خلف أباه، بين مليون ونصف المليون فرد وثلاثة ملايين. وتجدر الإشارة إلى أنّ المهدي هو أشهر أفراد أسرة السنوسي. فقد رأى منذ البداية أن نفوذ الطائفة يجد في مناطق الكفرة والبلاد الجنوبية مجالاً أوسع مما يجده في الشمال. ولذلك نقل مركز إقامته سنة 1312 هجرية من جغبوب إلى الكفرة. وقبل أن يترك مقرّه القديم، أطلق جميع عبيده من الرق، ولا يزال بعض من هؤلاء العبيد وأولادهم مقيمين في جغبوب.

وشكّل انتقاله إلى الكفرة فاتحة عصر جديد في تاريخ السنوسيين. ففي عهده، تقدّمت التجارة بين السودان وشاطئ البحر الأبيض المتوسط عن طريق الكفرة ، حتى إنّ الطريق الوعرة الخالية من الماء، الواقعة بين «بوالطفل» بالقرب من جالو وبين بئر زيغن في شمال الكفرة، أصبحت طريقاً تسلكها باستمرار القوافل التجارية ويرتادها المسافرون لزيارة الكُفرة، مركز طائفة السنوسيين. وبلغت الحركة في تلك الطريق حداً كبيراً، فأخبرني بدوي مرّة قائلاً: «إنّه كان في وسع الإنسان أن يسير نصف يوم من أوّل القافلة إلى آخرها». هذا وكانت الطريق من الكفرة إلى واداي وعرة وخطرة في تلك الأيام، فحفر المهدي بئري (بشرى» و «سارة» في الطريق الممتدة الكفرة إلى تكرو. وكانت واحات الكفرة في أيام قبيلة زوي» البدوية التي انتزعتها

من قبيلة «التبو»، المعروفة بعرقها الأسود، مركزاً مهماً للسطو والاغتيال في صحراء ليبيا. وكان أفراد هذه القبيلة المتمرّدة يميلون إلى القتال، ولا يخضعون لقوّة أو لقانون ولا يرحمون من يخترق أراضيهم. فلم تسلم قافلة مرّت بالكفرة من النهب والسلب أو الاضطرار لدفع الجزية. وجاء المهدي فجعلهم يتنازلون عن طلب تلك الجزية، لأنه أدرك أهمية تطوير تجارة هذه الواحات والطرق عبر صحراء ليبيا من الشمال إلى الجنوب. لقد عمل على جعل السفر في الصحراء آمناً، حتّى قال لي أبو مطاري، وهو من شيوخ قبيلة «زوي» في الكفرة، إنّه صار في وسع المرأة أن تسير من برقة إلى واداي من دون أن يتعرض لها أحد». وفي هذا الإطار، بسط المهدي نفوذ السنوسيين في جهات كثيرة، وأرسل الإخوان يؤسسون الزوايا في البلاد الواقعة بين مراكش وبلاد فارس ولكن أهم أعماله كانت في الصحراء بين البدو وقبائل السود المقيمة جنوب الكُفرة. فقد جعل من السنوسيين قوّة روحية منتشرة في تلك المناطق، وعاملاً قوياً لبثّ السلام وروح الأخوة بين القبائل. وأكثر من ذلك، فلقد جعلهم هيئة تجارية كبرى وبفضلهم نمت التجارة وازدهرت. وفي آخر سني حياته أخذ على عاتقه بسط نفوذ الطائفة، فانحدر إلى الجنوب حتى وصل جرو، جنوب الكفرة، حيث كان على موعد مفاجئ مع الموت سنة 1900 ميلادية. مات المهدي ولم يكن أحد من أولاده قد أكمل سن البلوغ، فخلفه في زعامة السنوسيين ابن أخيه السيد أحمد وصياً على السيد إدريس أكبر أبناء المهدي وخليفته الشرعي. وخرج شيخ السنوسيين الجديد عن مناهج أسلافه، فأراد أن يجمع بين القوتين الزمنية والدينية في آن. أخذ الايطاليون برقة وطرابلس من الأتراك، حاول السيد أحمد أن يضيف إلى قوته الروحانية ما تركه الأتراك من القوتين الزمنية والحربية. واندلعت الحرب العظمى، فأراد أن يهاجم تخوم مصر الغربية تحت تأثير البعثات التركية والألمانية، ولكن فشلت مساعيه حتى اضطر إلى السفر إلى تركيا في غوّاصة ألمانية. وهكذا خالف ثالث زعماء السنوسيين سياسة السنوسي الكبير وابنه المهدي اللذين أدركا أن الزعيم الديني لا يمكن منازعته في زعامته أو القضاء على مكانته. أما اذا طالب هذا الأخير بالحصول على السلطة الزمنية فقط، فإن بعض الهزائم الحربية كفيلة للقضاء على سلطانه

وتدمير شهرته. وقد كانت قوة السيد محمد بن علي والسيد المهدي عائدة إلى صفتهما الشخصية وما يشاع عن تأثيرهما الروحاني، فخالفهما السيد أحمد فى ذلك باعتماده على الأسلحة والذخائر والظروف، حتى إذا خانته كلّ هذه المعطيات، لم يبق له أيّ شيء. غير أنّه كان معروفاً بصلاحه وتقواه، وله مكانة عظيمة عند البدو لشدّة تمسّكه بأمور الدين الحنيف، ولما بذله من المساعي في محاربة الايطاليين، واجتهاده في إنقاذ بلاده من عبء الاحتلال. ولما خرجت الزعامة من يد السيد أحمد ، عادت إلى الوارث الشرعي أي السيّد إدريس الذي يستمد، بانحداره من صلب السيد المهدي قوّة عظيمة ونفوذاً كبيراً. وهو ، وبفضل تمتعه بهذه الميزة، أهل لتمكين نفوذ السنوسيين وإنجاح أهدافهم تحت زعامته لما يتحلّى به من الصفات الشريفة، من أخلاق مرنة إلى شدّة في الحق، ولذلك لا يقر له بالطاعة والولاء الإخوان السنوسيون فحسب، بل أهالي صحراء ليبيا كذلك. وفي سنة 1917 حصل اتفاق بين السيد إدريس وبين الحكومة الايطالية، أقرّت بموجبه إيطاليا للسيّد بحقه في إدارة شؤون واحات جالو وأوجلة وجدابيا والكفرة.

وقد تجدّدت المصادقة على هذا الاتفاق بعد ذلك بسنتين في رجمة. ولسوء الحظ، وقع خلاف بين الطرفين المتعاقدين سنة 1923، ففُسخ الاتفاق بينهما. غير أنني أرجو أن يتجدّد هذا الاتفاق بين السيد إدريس والحكومة الايطالية، فيعود إلى تلك الواحات ما كان لها من أمن ورفاهية . ولا خلاف فى أنّ للنفوذ السنوسي في حياة سكان تلك المناطق أثراً جيداً، فالإخوان السنوسيون لا ينشرون العلم ويقيمون قواعد الدين وينشرون دعوته فحسب، بل يوفّقون أيضاً بين الرجال والقبائل. وخير دليل على روح التوفيق هذه والرغبة في نشر لواء السلام خطاب السنوسي الكبير إلى أهل واجنجة الذي ألقى تلك المهمة على عاتق السنوسيين الإخوان، ولم يخرج ولده المهدي عن هذا الميل في التوفيق بين الأفراد، إن لم يكن قد زاده وقواه ومهما كان ما قلناه، فإنّنا لم نفِ مظاهر الحكم السنوسي حقها في حفظ الأمن وصيانة السلام والسعي لما فيه خير أهل صحراء ليبيا.

